أدبيات
نبع الآداب والثقافة المعاصرة

الملامح الخفية

لجبران ومي

Looloo
www.dvd4arab.com

مقـــدمة

(جبران....مى)

مما لا شك فيه ـ أن المادة الأدبية فى تاريخ الأدب الخالد .. والتى تحكى قصة « جبران ومى » هى مادة لا تنفد .. ولا تشيخ .. ولا تبلى .. ولا يلوح عليها التكرار أبدًا .. فإنه مهما كتب .. ومهما قيل .. ومهما قدم من الدراسات لتحليل هاتين الشخصيتين الفريدتين فى نوعهما .. فإن القارى لا يمل ولا يكتفى .. ولا يرتوى .. من الإقبال على ما يقدم .. أكثر .. وأكثر .. عن جبران .. ومى .

لهذا .. رأيت أن أجمع ما بينهما فى هذا الكتاب .. الذى تجولت فيه بين مجموعات .. ومجموعات .. من الدراسات والأعمال الأدبية .. المتنوعة التى قدمت عن جبران ومى .. لعلّى أكون قد وفقت فى تقديم الجديد .. من المزج بينهما فى عمل أدبى .. موّحد .

★ ★ ★

كانت الرسالة الأولى من مىّ إلى جبران فى عام ١٩١٢

ويرتبط اسم جبران خليل جبران باسم « مىّ زِيادة » ارتباطًا وثيقًا .. بحيث لا يمكن فصل اسم عن الآخر ..!! فجبران الشاعر الفنان الرسام الفيلسوف .. ومىّ الأديبة

النابغة .. الشفافة الرائقة التى تتصف بالمثل والقيم الأدبية والروحية .. والتى أحبها الكل .. وما أحبت هى .. سوى جبران .. عظيمة .. قوية فى حبها .. وفى كتاباتها ، متمسكة كل التمسك بتعاليم دينها .. الذى يسيطر على كل كيانها .. حتى لا يمكنها أن تفلت من أغلاله لتحيا حياتها .. كان حبها وهما رومانسيًا .. تستعذب فيه الألم .. وتستعذب فيه البعد .. أما جبران الفنان .. فكان يستعذب هذا الحب منها .. ومن غيرها .. لأنه كان دائمًا يقول :

(سوف تقول كل واحدة منهنّ .. كان حبيبى ..!! مع أننى لم أكن ..!!) .

★ ★ ★

يا قلب .. إن قالوا .. أين الذى تهوى ..؟؟
قل .. قد سبت غيرى .. ثم ادع السلوى ..!!
بالله يا قلبـــى .. استـــر جواك ..!!
فما الذى يضنيك .. إلا دواك .. فاعلم !!

★ ★ ★

وظهرك ريشة الشاعر الفنان جبـران فى رسومـه للشخصيات التى قدمها .. فكانت معبرة .. ناطقة .. وكان رسمه (الجائعة المتعطشة) التى يعنيها .. وهى الأرض .. يقول فيها :

« ما أكرمك أيتهـا الأرض .. نحـن نضج .. وأنت تضحكين .. نحن نذهب .. وأنت تكونين .. نحن نجدف ..

وأنت تباركين .. نحن ننجس .. وأنت تقدسين .. أنت أيتها الأرض .. فلو لم أكن .. لما كنت » ..!!

وفى أعماله .. وفى أدبه .. يتلاعب بالقلم نثرًا وشعرًا .. ففى (الأجنحة المتكسرة) .. يعيش فيها عالم الأمومة المشتاقة .. مع سلمى كرامة .. وهى تنظر إلى رسم أمها .. وتصرخ : أماه .. أماه ..!! يا أماه ..!!

و(الأجنحة المتكسرة) هى الرواية التى تعبر بالفعل عن آراء جبران وفلسفته فى الحب والزواج ..!! متمردًا على واقعه .. يدعو الناس إلى نشدان الحرية .. كما فى مجموعته (الأرواح المتمردة) إنسان طبع على المحبة والرأفة .. ولكنه ثائر .. ثائر ..!!

وفى كتابه (عرائس المروج) :

يعرض جبران مجموعة من القصص الاجتماعى .. استقاها من واقع الحياة اللبنانية ..

وفيها يؤمن ويؤكد .. أن العواطف والأحلام .. تبقى ببقاء الروح الخالدة ..

وفى حديقة النبى ..

كان يردد كلمات العودة إلى الحياة .. ذاكرًا الأم أو المرأة الثانية التى ستلده ..

« قليلًا .. قليلًا .. ولا ترونني .. وقليلًا .. قليلًا .. وترونني » ..

والمرأة الضعيفة عند جبران هى رمز الأمومة المظلومة .. وصورة لرمز أمته المظلومة .. وفى هذا ما يفزعه ..

ففى رسمه لوجه امرأة حزينة كتب من تحته « وجه أمى .. وجه أمتى » .. ويعبر فيه بأن المرأة من الأمة بمنزلة الشعاع من السراج ..

وكان جبران يحاول أن يكون نبيًا .. وأن يتشبه بأقوال وأفعال الأنبياء .. فقد ترك شعره مسترسلا .. يتبتل فى الوحدة فى حياة .. بحارها الوحدة والانفراد .. وأشجارها الأحلام وأزهارها الوحشة ، وينابيعها التعطش .. ليكتب إلى مىّ من غربته ووحشته ومرضه :

« أنا يا مىّ بركان صغير .. سُدت فوهته .. فلو تمكنت اليوم من كتابة شىء كبير أو جميل .. لشفيت تمامًا .. لو كان بإمكانى أن أصرخ عاليًا لعادت عافيتى .. هذه هى علتى .. علة فى النفس .. ظهرت أعراضها فى الجسد .. » .

وكتب إليها يقول : « ما أجمل رسائلك يا مىّ .. وما أشهاها .. فهى مثل نهر متدفق من الرحيق ، يتدفق فى الأعالى .. ويسير مترنحًا فى وادى الأحلام .. » .

★ ★ ★

أما مىّ .. فكانت فى تعلقها بجبران .. متعلقة فيه بوالديها .. حائرة فى أمرها ، ففى رسالة له تقول :

« جبران ـ أرجو أن تساعدنى وتحمينى .. وتبعد عنى الأذى .. ليس بالروح فقط ، بل بالجسد أيضًا .. أنت الغريب

الذى كنت لى .. وعلى الرغم منك .. أبًا وأخًا ورفيقًا وصديقًا .. وكنت لك أنا : أمًا وأختًا ورفيقة .. وصديقة .. أنا وأنت .. سجينان من سجناء الحياة !! » .

وكانت مىّ على البعد تنادى جبران : « وسأدعوك قومى وعشيرتى .. سأدعوك أمى وصديقى .. سأتصورك عليلا لأشفيك .. مصابًا لأعزيك .. مطرودًا مرذولا .. لأكون لك وطنًا » .

ويقول لها جبران : « آه منك يا مىّ .. وآه لك .. وآه من حب لن يشفيه سوى الموت .. » .

★ ★ ★

ولدت « مارى زيادة » بفلسطين عام ١٨٨٠ ـ ودخلت مدرسة للراهبات وأتقنت الفرنسية .. وذاع صيتها الأدبى وهى فى العشرين من عمرها .. وصحبت أبويها إلى مصر قبل الحرب العالمية الأولى .

وأصدر والدها « إلياس زيادة » جريدة المحروسة ـ جريدة يومية سياسية مسائية باللغة العربية ـ فاتجهت مىّ إلى تقوية أسلوبها العربى ـ فدرست آداب اللغة .. وتاريخ العرب والفلسفة الإسلامية .. والتحقت بالجامعة المصرية القديمة .. وأخذت تنشر مقالاتها فى المحروسة ، وفى المجلات الأدبية التى كانت مزدهرة فى ذلك الحين ، مثل الهلال ، والمقتطف ، والزهور .. وكانت تتقن ثمان لغات عدا العربية .. وألفت

ديوان شعر بالفرنسية .. وقصة باللغة الإنجليزية .. وكانت توقع باسم « إيزيس كوبيا » .. فى المؤلفات الأجنبية ..

ومن مؤلفاتها : (ابتسامات ودموع) ، (المساواة) ، (وردة البازجى) ، (رجوع الموجة) ، (باحثة البادية) ، (سوانح فتاة) ، (بين الجزر والمد) ، (كلمات وإشارات) ، (ظلمات وأشعة) ، (غاية الحياة) ، و (الصحائف) ..

ولقد بدأت حياتها الاجتماعية بأن أعدت فى بيتها صالونًا أدبيًا يجتمع فيه الأدباء وأهل الرأى يوم الثلاثاء من كل أسبوع، وكان هذا الصالون فى منزل بشارع عدلى (مكان محطة البنزين القائمة هناك) الآن ، وكان يتردد على الصالون عميد الأدب العربى د . طه حسين ـ وشيخ العروبة أحمد زكى وشيخ القضاة عبد العزيز فهمى ـ وشيخ الشعراء إسماعيل صبرى ـ وشيخ الصحافة داود بركات ـ وشيخ المفكرين دكتور شبلى كميل ـ والأستاذ الأكبر مصطفى عبد الرازق ـ وأمير الشعراء أحمد شوقى ـ وشاعر الأقطار العربية خليل مطران ـ وشاعر النيل حافظ إبراهيم ـ والشاعر الثائر ولى الدين يكن ـ والأديب المحافظ مصطفى صادق الرافعى ـ والكاتب الكبير أنطون الجميل ـ وأستاذ الجيل أحمد لطفى السيد ـ والأستاذ الدكتور منصور فهمى ـ والكاتب الكبير عباس محمود العقاد ـ وشيخ الخطاطين نجيب هواويني .

وكان يوم الثلاثاء يومًا مقدسًا عند رواد الصالون ، قلّما يتخلف منهم أحد .. إلا إذا كان مريضًا .. أو على سفر .. وقد كان

شيوخ الصالون يحبون مىّ .. ويحسون لها عاطفة اختلطت ملامحها .. أهى عاطفة حبّ أبوى .. أم هى عاطفة حب عذرى ..

كانت (مىّ) أسطورة فى قلوب العشاق ، وأغنية على لسان المحبين .. وحلمًا فى خيال الشعراء .. وكانت أيضًا حلمًا كبيرًا .

لقد تعلق جبران بمىّ تعلقًا روحيًا .. ونحتت (مىّ) لجبران تمثالًا .. كونت فيه صورة لمعبودها على البعد .. فكانت مثل ربات الأساطير ، التى هامت فى الدنيا وصعدت إلى قمة جبل الأوليمب ، وهى تستنشق ريح الألهة .. وتطالبهم بمعشوقها الذى لم يخلق بعد ..

ونسج القدر خيوطه .. فقد توقفت حياة (مىّ) يوم توقفت حياة جبران .. على البعد .. واعتزلت الحياة .. وعاشت ساهمة حزينة ذاهلة .. منطوية على نفسها .. وعلى أحزانها ..

لقد ظلمت (مىّ) من الأهل .. وظلمت أكثر من صدقوا ادعاء جنونها .. وظلمت أكثر وأكثر ممن قيدوا حريتها وحجروا على مالها .. ونهبوا بيتها ..

كانت محط الطامعين فى نفسها وفى مالها وأدبها .. ولكنها فى النهاية .. كتبت تقول :

« لست أتهيب الألم .. إن أفكارى وأعمالى .. قد فازت بطابع البقاء .. » .

★ ★ ★

لقد فارق جبران موطنه بشرى برفقة أمه وأخيه بطرس وأختيه إلى مدينة بوسطن فى الولايات المتحدة عام ١٨٩٥ ـ وفي العاشر من نيسان عام ١٩٣١ هوى جبران صريعًا تحت وطأة الداء ، ودفن مؤقتًا فى ضريح (مونت بنديكيت) فى بوسطن لينقل بعد ذلك إلى لبنان .. وأقيم له مأتمًا عظيمًا .. ودفن في (ديرمار سركيس) .

وفى آخر رسائله إلى (مىّ) كتب يقول :

« أتعلمين يا (مىّ) أنى ما فكرت فى الانصراف الذى يسميه الناس موتًا .. إلا وجدت فى التفكير لذة غريبة .. وشعرت بشوق هائل إلى الرحيل » ..

★ ★ ★

وقد كتب فى وصيته :

« إن تكن لى أمنية بعد الممات .. فهى أن ألحد على أكتاف الوادى الرهيب (وادى قاديشا) وما أحلى أن أسمع فى صمتى الأبدى .. دقة الناقوس .. ومبخرة الراعى .. » .

★ ★ ★

ومن مؤلفات جبران :

(البدائع والطرائف) ، (الأجنحة المنكسرة) ، (الأرواح المتمردة) ، (عرائس المروج) ، (دمعة وابتسامة) ، (العواطف) ، (النبى) ، (حديقة النبى) ، (المجنون) ، (المواكب) ، (رمل وزبد) ، (يسوع ابن الإنسان) ، (آلهة الأرض) ، (رسائل جبران) .

لوسى يعقوب

الأدب الجبرانى

جبران خليل جبران .. فيلسوف .. وفنان .. من كتاباته .. وفنه .. وأفكاره الثورية .. يترك انطباعًا عند القارئ بأنه فنان .. استعمل الكلام الأدبى .. ليقوض به أسس مجتمعه .. بأسلوب يخلو من الاتزان .. ومن الأفكار الإيجابية .. وهذا هو الخطأ الذى وقع فيه معظم قراء أدب جبران .. فهو فضلًا عن أنه شاعر وأديب رومانسى وفنان .. يلعب بأوتار ريشته كما يلعب على أوتار الكمان .. فله أيضًا ناحية إيجابية .. يعيش فيها كثير من خصب الخيال .. أسس المجتمع المثالى .. التى يود أن يتبناها مجتمعه .

وعندما نقول .. أن جبران فيلسوف .. فإنه بالفعل (فيلسوف) .. عندما نحاول دراسة أبعاد فكره الفلسفى، فهناك قطعًا .. تعارض .. بين انحرافاته النفسية .. وعبقريته الفذة .

فهناك صلته بالصديقة (مارى هاسكل) وخطاباته لها .. التى تشكل بوحًا بشئون وأسرار خاصة .. يندر العثور على مثيل لها عند المفكرين .

ولتفسير تحليلى لنفسية جبران :

نجد مثلا : إيمانه بعظمة وألوهية الإنسان .. امتدادًا لعبادته لنفسه .. لنرجسيته .. التى استحكمت فى نفسه .. فى عقدة

مؤلمة منذ حداثته .. المغموس أطرافها بألـم الاتضاع الاجتماعى .. والكبت العاطفى .

وهو تشبيه تام .. أقرب ما يكون بين عواطف .. (ميّ) و (جبران) .. « النرجسية .. والكبت العاطفى .. والتزمت الدينى .. والتبلبل الفكرى .. فى صراع عاطفى مرير .. لا يتحقق فى ظل شدة التدين .. » .

الغربة : تلهفه على أرض الوطن .. وتشتته .. مما يولد ازدواجية مرضية .. والشعور بعدم الانتماء .. ثم هذا الشعور المرير .. يجعله ماخرًا من أرضه .. ومن قومه ..

قوله عن أن (كونفوشيوس) هو الذى عبر عن الذاتية الصينية .. وهذا هو واجب الأديب .. والتزامه نحو وطنه ..

وقوله : أن (كونفوشيوس) هو هبة الشخصية الصينية إلى العالم .

إذن فلقد كان عند جبران .. عقدة الغربة عن الذات .

ـ الأدب بالفلسفة ..

ـ الأدب بالسياسة ..

ـ الأدب بالفن ..

ـ الأدب ..

كتابات (جبران خليل جبران) يمتزج فيهـا الأدب بالفلسفة .. الشعر بالحكمة .. العاطفة بالعقل .. الفن بالعلم .. فيجد فيه كل إنسان الناحية التى ترضيه وتشبعه .. هذا هو (الأدب الجبرانى) ..

★ ★ ★

جبران ... الطفل الحزين ..

جبران .. الطفل الحزين ..

بشرى .. لبنان .. الأم .. (كاملة رحمة) ترضع الطفل الذى ولد فى زاوية بيت حقير - ٦ كانون عام ١٨٨٣ ابنة الخورى (أسطفان عبد القادر رحمة) الأم .. استقت من بيتها الأبوى .. روح الرزانة النسوية .. المقرونة بالحكمة .. والخلق الرفيع .. مع تدين عميق .. فهى تعرف كيف تدبر شئون بيتها وأولادها الأربعة .. (بطرس ابنها البكر الوحيد .. من زوجها الأول .. حنا عبد السلام رحمة .. - الذى حملها معه إلى البرازيل .. حيث توفى هناك - وجبران مع شقيقتيه .. ماريانا وسلطانة - الذين أنجبتهم من زواجها الثانى بـ (خليل مطران) .

وشئون بيتها .. لاتتعدى تدبير الغذاء .. والنظافة .. واهتمامها قبل كل شىء .. بأن تبث فى صغارها .. روح التآخى والتساند .. وروح النضال فى سبيل العيش .. ويبدو أن لطف هذه المرأة ومحبتها .. قد جبل فى نفوس أبنائها .. (عفوية الإيمان) (ومحبة الناس) .. والاندفاع إلى العمل .. المشبع بروح العدل .. فطبعتهم بطابع إنسانيتها مدى حياتها ..

وكان اهتمامها بولدها جبران كبيرًا .. لذا فإن موتها بعد

سنوات .. أثقل على (جبران) .. حتى إحساسه بالرهبة من فراغ الحياة ..

ثم .. قسوة الأب .. وشراسته .. والضيق المادى .. جعل التنافر بين الأب والأولاد شديدًا .. وهذا ما يوضحه قول (جبران) فيما بعد .. فى خطاباته (لمارى هاسكل) .. إذ يقول :

«إن أبى حاربنى .. واستفزنى للقتال» .

وانكمش الأطفال على أنفسهم .. يزدردون دموعهم اليومية .. قبل النوم .. ويغطون فى حلم الخلاص من جحيم البيت المنكوب ..

وكان الخلاص فعلًا .. عندما تركوا والدهم بمفرده .. وسافر الجميع ـ الأم والأولاد الأربعة ـ إلى الولايات المتحدة الأمريكية ، غير آبهين .. لوضعه ومستقبله ..

وكبر (جبران) .. وترعرع فى بيئة محافظة .. وكانت أهم الكتب بالنسبة له .. هى (المزامير) .. وكانوا لا يطلبون العلم .. إلا عن طريقة لغة المسيح .. والكتب الدينية ..

إنهم من (بشرى) .. عاصمة المقدمين الموارنة .. ومن لبنان .. التى يجب أن تحافظ على إرث الأجداد .. لقد سار (جبران) مع الآلاف قبله .. واختلف إلى مدرسة رهبانية .. هى عبارة عن فجوة فى صخور مشرفة على وادى (قاديشا) .. وفى هذه الفجوة ـ التى يملكها (دير مارسركيس) .. ساكن (جبران) الطبيعة البكر .. فى

الصومعة التى لم تصنعها يد الإنسان .. وفى الأمثولات الفطرية ..

التزمت الدينى .. كان رهيبًا فى طفولة (جبران) .. وأن رسوخ الإيمان .. بمعتنق دينى مًا .. خاصة فى عقل طفل ساذج .. فى الطفولة الثالثة .. بين السابعة والبلوغ .. هى أخصب أرض لهذا الإيمان الساذج البرىء .. وإذا ما اقترن هذا الإيمان الاستسلامى .. برباط اجتماعى عنصرى .. فإن نشدان الخلاص السماوى الفردى .. يتحد بشوق الخلاص الجماعى .. ويتحول فى بعض فترات الانفعال .. إلى هوس صوفى .. انتحارى .

وكانت كل هذه المتناقضات .. أن شدت بالطفل .. نحو وهم غيبى .. يتراوح بين متناقضات ثلاث : الحزن .. والعدم .. والخلود .

وهكذا .. فارق (جبران) موطنه بشرى .. برفقة أمه .. وأخيه بطرس .. وأختيه .. إلى مدينة (بوسطن) فى الولايات المتحدة الأمريكية عام ١٨٩٥ حاملًا فى نفسه .. شعلات روحية .. هى مزيج من فقدان حنان الأبوة .. ومحبة يسوع .. والتعلق الغريزى بالأرض .. وأهاليها الأبرياء .. والحرمان المادى ..

إنه مزيج غريب .. يستثير فى نفس الفتى الطموح .. القلق المضنى .. فلا يؤنسه سوى وجه أمه الرءوف .. الذى يهبه بصيصًا من شراب السعادة .. وكان (جبران) قد بلغ الثانية عشرة من عمره .

واستقرت العائلة فى الحى الصينى فى مدينة (بوسطن) لعدة سنوات .. وهو يعيش مع الفئات الشعبية الفقيرة من قاطنى المدينة .. ويسكن فى هذا الشارع المهاجرون اللبنانيون والسوريون والكثير من الصينيين .. فى بيوت قديمة .. قذرة .

كان (جبران) .. يساكن البؤس والوضاعة .. والشقاء .. فى هذا المكان الموبوء من الدنيا .. وكان يعود من مدرسته الابتدائية (كوينسى) التى قضى بها سنتين ونصف .. ويبدو أن الحرمان قد ولّد فى نفسه التوق إلى الاطلاع على بؤس الناس وحرمانهم .. فقرأ بلذة (كوخ العمّ توم) الذى أهدته إليه مدرّسته .. وكان يومئذ فى سن المراهقة ، وكانت له طاقة عاطفية متفجرة .. وانشغل بصحبة زوجة أحد التجار .. وتحدث عنه بعض الناس .

ويقولون .. أن أمه وأخاه .. أرسلاه إلى بيروت ليتعلم العربية فى معهد الحكمة .. على إبقائه هناك .. فريسة لحبه المراهق .

أما ما يقال أكثر .. وهو الأصلح .. أن نزعة الفتى العلمية للتبحر فى لغة بلاده .. وحنينه اللاواعى إلى الأرض الحلوة التى أحبها .. هو ما دعاه إلى الذهاب إلى بيروت .. فإن هناك شك .. فى انجراف امرأة ناضجة فى الثلاثين .. ومتزوجة من رجل ثرى .. وشاب .. فى مغامرة عاطفية .. مع فتى .. فى الخامسة عشرة من عمره .

وقضى (جبران) أربع سنوات يدرس فى معهد الحكمة بلبنان .. من عام ١٨٩٨ ـ ١٩٠٢ م .

وكان الرسم .. والشرود .. من خصائص (جبران) .. فإن أول رسم رسمه .. كان جسم امرأة عارية .. مغطاة بشعرها .. (غروب الشمس) .. وكان عنده ميلًا فطريًا للجمال العارى .. والكائن الأنثوى .. هو الذى يغذى جذور خياله .

وكانت هناك ظاهرتان أيضًا (لجبران) :

ـ إبقاؤه شعره كثيفًا مثيرًا للتساؤلات فى جوّ المدرسة .. وبقى شعره طويلًا .. لفترة سنين عديدة ..

ـ فتور علاقته بأبيه ..

ـ تكون عقدة الدونية عند (جبران) :

ابتدأت هذه العقدة .. عندما أحب فتاة هى : (حلا الظاهر) أخت إسكندر بيك الظاهر من أعيان المنطقة .. ولم يوافق أهلها .. فمن هو (جبران) .. ابن السكير الفاقد إتزانه .. ابن الشعب .. ابن الفقير .. فاشتكى الأمر للكاهن الذى أجابه :

ـ ومن أنت حتى تراودك فكرة الاقتران بابنة الظاهر ..

وطعن بذلك الجواب المذل ..

يومها .. لم يعد (لجبران) مجال للبقاء فى لبنان .. خاصة بعد

ورود نبأ وفاة أخته سلطانة .. ونبأ مشارفة أمه على الموت .. فغادر لبنان إلى غير رجعة سنة عام ١٩٠٢ .. حاملًا فى سراديب لاوعيه .. شرارات من الحقد .. واللوعة .. لن تمحى أثرها .. من نفسه .. ولكن .. ما أن استقر به المقام فى حيه الصينى .. فى (بوسطن) .. حتى غرب وجه أمه عنه .. إلى الأبد .. فكتب يقول :

«ما بكيت عليها لأنها لأمى وحسب .. بل لأنها صديقتى .. لقد كانت حكيمة فوق كل حكمة» ..

وماتت أمه .. لتحيا فى زوايا لاوعيه ووجدانه .. أنشودة الفكر اليقظ المحب .. يغنيها (جبران) الأديب والفنان .. بطرفى قلمه وريشته .. وفى سره .. وعلانيته ..

★ ★ ★

واحترف (جبران) الرسم فى (بوسطن) .. إلا أن الذوق الأميركى المغالى فى الواقعية .. لم يكترث لفتى من أصحاب الخيال .. وصارع القدر .. إلى أن كان يوم استحسنت فيه إحدى الزائرات بعض رسومه .. فدعته لزيارتها فى المدرسة التى تديرها .. وهكذا دخل كل من (جبران) و (مارى هاسكل) .. فى حياة الآخر .. فامتزج المصيران على غير فرقة روحية .. حتى أفول حياته ..

★ ★ ★

كتب كتابه (الموسيقى عام ١٩٠٥، ثم (عرائس المروج) بها ثلاث قصص .. هى : (رماد الأجيال) - و (النار الخالدة) .. (مرنا اليابانية .. و (يوحنا المجنون) ..

وفى هذه القصص .. يتمرد (جبران) على المبادئ الخلقية والدينية التقليدية .. كما يشير إلى إيمانه بمبدأ التقمص ..

وفى لقاءاته بمكتب (مارى هاسكل) حدث حب صامت .. مع شقراء فرنسية .. وقعت فى هواه .. هى (ميشلين) .. عشقته الفتاة حتى ذهبت إلى باريس للاجتماع به .. ولكنه تهرب منها ..

وكان الكاتب الناشئ الذى ينشر فى جريدة (الهدى) يشعر بالنقص فى اختصاصه العلمى .. فعوّل على السعى للسفر إلى باريس .. وتكفلت المرأة الرؤوم (مارى هاسكل) .. بإعطائه ٧٥ دولارًا شهريًا حتى يتمكن من السفر إلى باريس .

وسافر إلى باريس بعد أن أصدر (الأرواح المتمردة) وبها قصص .. (وردة الهانى ..) .. (صراخ القبور) و (مضجع العروس) و (خليل الكافر) هذه القصص .. التى فجر فيها (جبران) .. ذروة حقده القديم على رجال الدين .. ومبادى الزواج .. والعدل البشرى ..

★ ★ ★

وفى باريس .. أروع أمنية لدى (جبران) .. سجل اسمه فى (أكاديمية جوليان) دارسًا فن الرسم .. على يد (جان بول لورانس) .

ورودان .. كان يغذى خيال (جبران) .. نحو التمثل بالعظماء .. وصداقته الروحية .. بينه وبين الشاعر الإنجليزى (وليم بلايك) فقرأ له .. وتمثله فى كتاباته .. ورسومه .. الإنسان الناطق بلسانه منذ أجيال .

وحافظ (جبران) على شعره طويلا منسدلًا .. كتأ فوق أذنيه .. ومؤخرة عنقه .

والمرأة فى حياة (جبران) ماذا ؟ ..

كان يستأجر موديلًا هو وزميله (يوسف الحويك) وكان يستخدمانها للرسم .. أما حين المداعبات ، فكان يستسلم لها (يوسف الحويك) ـ أما (جبران) .. فكان يتهرب من التجربة ..

فكانت تقول (ليوسف) : رفيقك عاجز .. لا خير فيه ...

★ ★ ★

«وفى هذه الفترة .. يموت (خليل جبران) فى بشرى .. ويبيع نسيبه (نخلة) ما بقى للراحل .. وفاء لديونه .. ولا نعثر فى خطابات (جبران) ما عرفناه من حرارة الحزن على فقد أمه .. سوى أنه يعبر عن ألم الحياة وعن معاناته تباريحها بصبر وحكمة .. بدون الإتيان على ذكر الوالد المفقود» .

★ ★ ★

وتنتهى دراسته فى (باريس) .. ليعود إلى (بوسطن) .. حيث تنتظره (هاسكل) .. التى لم تقطع عنه الإعانة الشهرية منذ إقامته فى أوروبا .. وإلى أخته (ماريانا) التى كانت تشتغل بالإبرة لتعوله وتعول نفسها .. وتصرف على البيت .. عاد إلى حلقات الأدب والفن .. وابتدأت مرحلة جديدة فى

إنتاجه .. وعرض على (مارى هاسكل) الزواج .. ولكنها أظهرت شكًا بسلامته الجسدية .. فدفن مشروعه إلى الأبد .

وفى نيويورك .. عاش فى مسكن .. وغرفة له أسماها (الصومعة) .. ونشر (الأجنحة المتكسرة) بأسلوب شعرى .. وثورة على التقاليد التى تكبت عواطف الإنسان ..

ثم قامت بعد ذلك علاقة غرامية .. بين (جبران) القاطن فى نيويورك .. والأديبة (ميّ) القاطنة فى مصر .. لم تتعد نطاق التراسل .

وهنا التساؤل عن طبيعة الشخصيتين .. وطرافة نظرتهما إلى الحياة .. بالنسبة لتفكير الإنسان العادى .

ولكن الحب .. لم يكن شغل (جبران) .. بل أن تحقيق طموحه الفكرى .. كان طموحه الفكرى وشغله الشاغل .. فأصدر تباعًا بالعربية فى نيويورك (دمعة وابتسامة) ، (المواكب) ، (العواصف) ، ثم بالإنجليزية : (المجنونة) .. وبالعربية : (البدائع والطرائف) ، (النبى) ، (رمل وزبد) ، (يسوع ابن الإنسان) ، (آلهة الأرض) ، (التائه) ، (حديقة النبى) ، (فلسفة الدين والتدين) ، (وميخائيل نعيمة) كتابه عن (جبران) .

★ ★ ★

وحياة (جبران) .. كانت صراعًا عنيفًا بينه وبين المجتمع مع الناس .. جعل البشر لا يرون فيه .. إلا العظيم المؤهل لإصلاح عالم الإنسان .. وقيادته نحو التفوق .. ومع نفسه

جاهد كى يكون بمقدورها ضبط ضعفه الجسدى .. وعلل جسده عن عيون المجتمع .. المتربص بكل شهير عظيم .. وكتم سر مرضه عن أقرب الناس إليه .. وكتب إلى (مىّ) .. يقول عن مرضه :

«إنها علّه فى النفس .. ظهرت أعراضها فى الجسد» .

وعندما نصحه (ميخائيل نعيمة) بدعوة أخته (ماريانا) للسكن معه .. مواساة له فى مرضه .. رفض .. وانكمش على نفسه .. يجتر آلام علته .. وعزلته .

وفى العاشر من نيسان عام ١٩٣١ ، هوى (جبران) صريعًا تحت وطأة الداء .. ودفن مؤقتًا فى ضريح (مونت بند يكيت) بضاحية (بوسطن) .. لينقل بعد ذلك .. وفى خلال الصيف إلى لبنان .. وأقيم له مأتمًا عظيمًا .. ودفن فى دير (مارسركيس) الذى استقبله تلميذًا .. وختمها إنسانًا .. يتوق بعد موته إلى رجعة نحو الفطرة والطفولة لذلك كتب فى وصيته :

«إن تكن لى من أمنية .. بعد الممات .. فهى أن ألحد على أكتاف الوادى الرهيب .. (وادى قاديشا) .. وما أحلى أن أسمع فى صمتى الأبدى .. دقة الناقوس .. ومبخرة الراعى» ..

★ ★ ★

ماذا يقول التحليل النفسى لأدب جبران

ماذا يقول التحليل النفسى
لأدب جبران

الغرابة الأدبية فى كتابات (جبران) .. فى غلالة الحزن المأساوى .. والمزج بين الفلسفة والشعر .. إنها .. العقدة الجبرانية ..

فإنه إذا صحّ اعتقاد (واتسون) من أن المربى يستطيع تكوين شخصية الطفل على هواه .. حتى فى نزعاته .. وأن نفسية الطفل مرهونة بالبيت وبالمدرسة .. فهو يقول : «أعطنى طفلًا .. أعطيك الرجل الذى تريد .. » .

نرى أن أول العقدة عند (جبران) هى :

ـ إحساسه باليتم الأبوى .

«والد (جبران) ، كان إنسانًا فظّ الطباع ، لا يهمه فى الحياة إلا أطايب الخمر وجو المجون .. وهو ليس متعلمًا .. عمله وضيع .. عدّ الماعز أو رعيها فى جرود (بشرى) » .

ولنا أن نلحظ الوضاعة النفسية التى يحس بها الولد .. بين أقرانه .. عندما يلحظ أناقتهم .. وبين ضعته .

إنها عقدة (البراءة الجريحة) شعور بالمكانة الوضيعة .. شعور بالنقمة المكبوتة .. إنها (عقدة التدنّى) .

(عقدة تدنٍّ) .. إما أن يحرق من جرأته .. أو بالعكس .. عقدة نفارال .. وهى للشعور بالتفوق أو .. لتغطية تدانيه .. ومن ثَمَّ .. نشأت عنده عقدة أوديب .. (شدة التعلق بأمه) .

ـ حكاية الصومعة : كان يعيش فيها لابسًا العباءة .. جالسًا القرفصاء .. وشاربًا قهوة القرويين .

هذه .. تلقى ضوءًا على نزعته لحياة الفلاح .. ودعوته الصريحة فى أدبه .. لاستعادة حياة العهد الأول للإنسان .. عهد ابن الغاب .. الذى يمثل .. طهارة الكائن الحى ..

شعوره الخفى .. تجاه الأم : لقد أثر عليه موت أمه .. لدرجة الطلب من نسيبه نخلة .. أن يحفظ له بعض الأغراض التى تركتها أمه .. استبقاء لذكراها .. لأنه كان يقدسها .. أما أبوه .. فلا شىء .

ثم أنه كان يردد على مسمع من (مارى هاسكل) .. بأنه فى حضرتها .. (طفل .. ويشعر أنها أم) .. وهى التى كانت تنشد فى (جبران) صفة الحبيب .. وهو كان يجد فيها .. طيف الأمومة المفقودة .

لذلك رفض الاتصال بها فى أى علاقة جنسية .. ولم يتورط مع (مارى هاسكل) أو غيرها .. فى أى علاقة .. ومن هذا نرى .. تيقظ عقدة أوديب فى نفسه .. فهو يصرح بأنه لم يقم علاقة جنسية حقيقية .. مع أية امرأة .. رافضًا

إلحاحهنّ .. داعيًا إلى الخفر الجنسى الذى يعتبره البذرة التى تنمو منها الحضارة .

إن العجز فى الاتصال بامرأة جميلة يحبها .. يؤيده التحليل النفسى من أن هذا العجز يرجع إلى تمكن عقدة أوديب منه .. فإن صورة الأم .. تلتصق بالفتاة التى يتصل بها .. لتتحد الاثنتان .. مولدتين ارتجافًا خلقيًا .. هو امتداد للارتجاف الخلقى الذى تحدثه فكرة الاتصال بالأم .. بالذات .

وهذا الارتجاف يؤدى إلى ارتداع ذاتى عن الاتصال (بامرأة أم) .. مما يعيد الإنسان إلى صراع قديم مع نفسه .. يوم كفَّر عن مشاعره .. فى آخر مراهقته .. بالتستر تحت وطأة تبكيت الضمير .

وكان (جبران) فى كل حياته .. واقعًا تحت وطأة .. (عقدة أوديب) .

وعقدة (أوديب) عند (جبران) .. لم تحصر تأثيرها فى الجنس .. بل تعدته إلى النشاط الأدبى .. وحتى .. الاجتماعى .. فلقد تغلغل (الولع الأنثوى) .. إلى حد استقطاب كل حسّ جمالى لديه .. أيًا كان الموضوع الذى ينصب عليه هذا الحسّ .. ويؤيده قوله فى (الأجنحة المتكسرة) :

« كل شىء فى الطبيعة يرمز .. ويتكلم عن الأمومة .. فالشمس هى أم .. وهذه الأرض أم للأشجار والأزهار .. والأشجار والأزهار تصير بدورها أمهات حنونات للأثمار

الشهية والبذور الحية .. وأم كل شيء في الكيان .. هي الروح الكلية .. الأزلية الأبدية .. المملوءة بالجمال .. والمحبة »

فكل شيء جميل ومفيد .. إذن .. هو (أم) ..

والجمال في الكون جوهر .. لا يجسده ظاهريًا شيء .. قدر ما تجسده المرأة .. (الأجنحة المتكسرة) ..

وفي (البدائع والطرائف) يقول :

« الجمال مظهر للجوهر في الأشياء » .. والمرأة تجسيد للجوهر .. لأنها جوهر الجمال .. هي كالحياة .. يمتلكها كل البشر .. وكالموت تتغلب على كل البشر .. وكالأبدية .. تضم كل البشر ..

ويظل (جبران) أمينًا لشوقه .. ولا يبدع إلا إذا شاركته المرأة في تنقيل قلمه .. أو ريشته .. فقد عنون قصة حبه (لسلمى كرامة) في (الأجنحة المتكسرة) .. لأن أمه قالت له وهو صبي : « أنت ملاك .. مكسّر الجناحين » .

لقد عاش (جبران) نزعة عنيفة نحو المرأة الأم .. الحبيبة .. بلغت حد المعاناة المريرة .. إلى حد تركيز ثورته ضد الاستبداد والشر .. على تحرير المرأة .. مما يدفع جورج جرداق إلى القول :

« في ثورة (جبران) العنيفة على الظلم .. والاستبداد .. نجد ظلا .. لجسد المرأة » .

إنه يؤثر تلمس المرأة في خياله .. على اقتحام هيكلها .. بالمواجهة الشخصية .. وأن الاجترار الخيالي لنكهة المرأة .. جسّم (جبران) الرجل .. بأدق ما يوصف به المراهقون الفتيان .. وهو في حرمانه منها .. رهبة من رهافة قدسيتها .

★ ★ ★

النرجسية : مولع بالعزلة .. طريف الحسّ بالجمال .. عنيف النزعة لعظمته الشخصية .. ويتوج عبادة الذات .. بصورة لوجهه رسمها بيده في (متحف جبران في بشري) ليدخلك من خلال خيوطها الشفافة .. إلى حرم جماله الخاص .. فتلمس اقتناعه الخفي بأن قسمات كهذه .. جديرة بأن تحب .. وتعبد مدى قرون .. ولم يكن (جبران) يكتب إلى الناس .. بقدر ما كان لنفسه .. فهو لم يكتب رسالة حب واحدة في حياته .. لأنه كان يتصور أن نهر المحبة .. يحب أن يتدفق نحوه .. لأنه خليق به ..

ومن كلام له حول موته مع (مارى هاسكل) .. « عندئذ ستأتي النساء .. وكل منهنّ ستقول لنفسها : كان حبيبي .. مع أنه لم يكن » .

وله فن كتابة الرسائل الغرامية .. في مراسلاته مع الأديبة (ميّ زيادة) .. ونعرف بعد ذلك .. أن جل غايته .. من رسائل الحب هذه .. أن تقف (ميّ) .. عند موته .. فوق رأسه .. لتقول : « كان حبيبي .. مع أنه لم يكن » .

وكان (ميخائيل نعيمة) في كتاباته عن (جبران) .. يجهل على الأجرى .. قصته مع (ميّ) .. لأنه لم يذكرها .. بل كان يقول عنها : «ميّ العانس المسكينة» .

وهذا ما يؤكد لنا .. نزوع (جبران) المراهق الأبدى .. إلى حث الآخرين .. بأية وسيلة ممكنة على إلباسه (كيان فينوس) استدرارًا للحب .. ولحب .. هو بعض من ولعه (النارسيسى) باستقطاب أنظار الناس إليه .

«مسكينة (مىّ) .. لم تكن تعرف أنها تحاور إنسانًا .. تراوده أطياف النبوة» .

★ ★ ★

«شعر طويل مسترسل» : هل أن طيف المرأة هو الذى يعيش بين ثنايا هذا الشعر .. وما هى ظاهرة انسدال شعره طويلًا .. وهو مراهق .. فى مدرسة الحكمة ..

«أم هو طيف النبى .. السائر فى خطى المسيح» ؟..

★ ★ ★

النبى .. شعر مسترسل كالمسيح .. والمسيح «عُبد» .. وكان معبودًا .. فلا مندوحة من عبادة الذات الجبرانية الممثلة لهذا المسيح .. وكأنما شعره الكث الطويل .. الذى رفض أن يقصه .. هو أثر من خيال المرأة .. وطيف المسيح .

ويتكلم (جبران) عن الموت كثيرًا .. ويعتبر علم التحليل النفسى .. أن نزعة الفنان إلى الحديث عن الموت .. مَيلًا أوديبيًا خفيًا .. للعودة إلى رحم أمه .. فكيف بولعه بأمه .. نظير ما فعل (جبران) ؟.. فالمرأة الولع .. نشدان لاوعى لعودة أوديبية إلى الرحم الذى حمله .

والمسيح .. عقدة يقظة التربية الدينية اللبنانية المارونية فى لاوعيه .. فامتزج وجه يسوع .. بذات (جبران) .. ليخسر مسيح التاريخ .. وتبقى عظمة حبه فى هذا الإنسان .. الناشد قمة البشر .. طموحًا مرضيًا .

ففى رسالة من (جبران) إلى (مىّ) .. نرى فيه التعلق بالمرأة .. ونرى فيه فلسفة النبى .. وكلمة النبى .. إذ يقول لها :

«أنا مديون بكل ما هو أنا .. إلى المرأة .. منذ كنت طفلًا .. حتى الساعة .. والمرأة تفتح النوافذ فى بصرى .. والأبواب فى روحى .. ولولا المرأة .. الأم .. والمرأة الشقيقة .. والمرأة الصديقة .. لبقيت هاجعًا مع هؤلاء النائمين الذين ينشدون سكينة العالم بغطيطهم .

لقد وجدت فى المرض .. لذة نفسية .. تختلف بتأثيرها عن كل لذة أخرى .. بل وجدت نوعًا من الطمأنينة .. يكاد يحبب إلىّ الاعتلال .. إن المريض لفى مأمن من منازع وأغراض الناس والوعود .. والمواعيد .. والمخالطة .. والمنازعة .. والكلام الكثير .. ورنين جرس التليفون .. وقد اكتشفت شيئًا آخر أهم .. بما لا يقاس من اللذة والطمأنينة .. وهذا هو : «أنى فى اعتلال أدنى إلى الكليات المجردة .. منى إليها فى صحتى .. فإذا ما أسندت رأسى إلى هذه المساند .. وأغمضت عينى عن هذا المحيط .. وجدتنى سابحًا كالطير فوق أودية وغابات هادئة .. متشحة بنقاب لطيف .. ووجدتنى قريبًا ممن

أحبهم .. أناجيهم وأحدثهم .. ولكن بدون غضب .. وأشعر شعورهم .. وأفكر أفكارهم يلومونني .. ولا يسخطون عليّ .. بل يلقون أصابعهم على جبهتي بين الأونة والأخرى .. ويباركونني .

حبذا لو كنت مريضًا في مصر .. حبذا لو كنت مريضًا بدون نظام في بلادي .. قريبًا من الذين أحبهم .. أتعلمين يا (ميّ) .. أنني في كل صباح ومساء .. أرى ذاتي في منزل في ضواحي القاهرة وأراك جالسة قبالي .. تقرئين آخر مقالة .. كتبتها .. أو آخر مقالة من مقالاتك لم تنشر بعد ؟ ..

أتعلمين يا (ميّ) .. أنني ما فكرت في الانصراف .. الذي يسميه الناس (موتًا) .. إلا وجدت في التفكير .. لذة غريبة .. وشعرت بشوق هائل إلى الرحيل .. ولكني أعود .. فأذكر أن كلمة لابد من قولها .. فأحار بين عجزي .. واضطراري .. وتغلق أمامي الأبواب .. لا .. لم أقل كلمتي بعد .. ولم يظهر من هذه الشعلة غير الدخان .. وهذا ما يجعل الوقوف عن العمل .. مرًا كالعلقم .. أقول لك يا (ميّ) .. ولا أقول لسواك .. أنني إذا ما انصرفت قبل نهجئة كلمتي .. ولفظها .. فأني سأعود لأقول الكلمة التي تتمايل الآن كالضباب في سكينة روحي .

أتستغربين هذا الكلام .. أن أغرب الأشياء أقربها إلى الحقائق الثابتة .. وفي الإرادة البشرية قوة اشتياق .. تحول السديم فينا إلى شموس .

(جبران)

★ ★ ★

وفي عام ١٩٢٦ .. كتب (جبران) يقول :

عزيزتي (ميّ) :

تقولين لي أنت فني وشاعر .. ويجب عليك أن تكون مقتنعًا لأنك فني وشاعر .. ولكن يا (ميّ) .. أنا لست بفني .. ولا بشاعر .. أنا ضباب يا (ميّ) .. أنا ضباب يغمر الأشياء .. ولكن لا يتحد وإياها .. أنا ضباب وفي الضباب وحدتي .. وفيه انفرادي ووحشتي .. جوعي وعطشي .. ، ومصيبتي هي أن الضباب .. وهو حقيقتي .. يتوق إلى استماع قائل يقول .. لست وحدك .. ونحن اثنان .. أنا أعرف من أنت .

أخبريني يا (مي) .. أفي ربوعكم من يقدر ويريد أن يقول لي .. أنا ضباب آخر .. أيها الضباب .. فتعال نخيم على الجبال وفي الأودية .. تعال نسير بين الأشجار وفوقها .. تعال نغمر الصخور المتعالية .. تعال ندخل إلى قلوب المخلوقات وخلاياها .. تعال نطوف في تلك الأماكن البعيدة .. المنيعة .. غير المعروفة .. قولي يا (ميّ) .. أيوجد في ربوعكم من يريد .. ويقدر أن يقول لي .. ولو كلمة واحدة من هذه الكلمات .

جبران

★ ★ ★

هذا النبي (جبران) السائر في خطى المسيح .. مبشرًا بكل روح سمحة .. وكل هدى صواب .. أنه ينادي بالمحبة .. في كتابه .. (النبي) .

«رفع رأسه .. ونظر إلى الشعب نظرة محبة وحنان .. فصمتوا جميعهم خاشعين .. فقال لهم بصوت عظيم :

إذا أشارت المحبة إليكم فاتبعوها .. وإن كانت مسالكها صعبة متحدرة .. وإذا ضمتكم بجناحيها .. فأطيعوها .. وإن جرحكم السيف المستور بين ريشها .

وإذا خاطبتكم المحبة .. فصدقوها .. وإن عطل صوتها أحلامكم .. وبددها .. كما تجعل الريح الشمالية البستان .. قاعًا صفصفًا .

المحبة تضمكم إلى قلبها .. كأغمار الحنطة .. وتطحنكم .. لكى تجعلكم أنقياء كالثلج .. المحبة لا تعطى عن نفسها .. ولا تأخذ إلا من نفسها .. ».

ويقول (النبى) عن العطاء :

«جميل أن تعطى من يسألك ما هو فى حاجة إليه .. ولكن أجمل من ذلك .. أن تعطى من لا يسألك وأنت تعرف حاجته .. فإن من يفتح يديه وقلبه للعطاء .. يكون فرحه .. بسعيه إلى من يتقبل عطاياه .. والاهتداء إليه .. أعظم منه .. بالعطاء نفسه .. » .

وعند الوداع .. يقول (النبى) :

« قليلة هى أيامى بينكم .. وأقل منها كلماتى التى تركتها لكم .

فإن حجبنى الموت عنكم الآن .. وضمنى الصمت العظيم .. بين طيات سكينته .. فأننى سأنشد أدراكم مرة أخرى .. ولن تذهب أتعابى فى الحين .. عبثًا .

إننى ماض مع الريح .. يا أبناء (أورفليس) .. ولكن لن أهبط إلى العالم السفلى إلى الفراغ الرهيب .

لقد كنت بينكم مثل الضباب .

ففى سكينة الليل .. كنت أمشى فى شوارعكم .. وكنت أدخل بروحى إلى أعماق منازلكم .. وكانت نبضات قلوبكم تتردد فى قلبى .. وسحائب لهاثكم تنتشر على وجهى .. وعرفتكم بعجزكم .. وبجرمكم .

نعم .. قد عرفت فرحكم .. وحزنكم .. فى هجوعكم كانت أحلامكم .. أحلامًا لى » .

★ ★ ★

ومن يتابع (الآثار الجبرانية) .. منذ أول كتاب له (الموسيقى) .. حتى (حديقة النبى) يجد كيف أن (جبران) يدور حول فكرة .. (التفوق الإنسانى) .. وهذا ما جعله يستعمل حقه .. فى فكرة (تفوقه الإنسانى) .. بإرسال كلمات الإصلاح والإرشاد .. كالمرسلين .. والأنبياء .. وعنده نزعة التفوق .. ولكن أيضًا .. يستكمل على أن عنده نزعة دينية متطرفة .. وتشبث عاطفى عنيف .. بروحية دينية عمقية .

و (جبران) يحس فى أعماقه بالألم .. الألم فى دبيب الأسى لمآسى المعذبين فى الأرض .. ويحسّ فى أعماقه بآلام لبنان ..

فماذا يقول (النبى) .. عن الألم :

« أن ما تشعرون به من الألم .. هو إنكسار القشرة التى تغلف أدراكم .

وكما أن قشرة النواة الصلدة .. يجب أن تتحطم .. وتبلى .. حتى يبرز قلبها .. من ظلمة الأرض إلى نور الشمس .

هكذا أنتم أيضًا .. يجب أن تحطم الآلام قشوركم .. قبل أن تعرفوا معنى الحياة .

أنتم مخيِّرون فى الكثير من آلامكم ..

وهذا الكثير من آلامكم .. هو الجرعة الشديدة المرارة .. التى بواسطتها يشفى الطبيب الحكيم الساهر فى أعماقكم .. أسقام نفوسكم المريضة » .

★ ★ ★

ويؤمن (جبران) .. بوحدة الوجود .. وعدم التمييز بين البشر .. وإيمانه هذا .. نوع من استعادة الاعتبار لبنى قومه .. تجاه عقدة التعالى عند الأمم الغربية .. ودعوة إلى التساوى بين البشر .. لما قاساه فى حياته من حرمان وذل .

ففى رسالة له .. موجهة إلى مواطنيه اللبنانيين فى أمريكا :

«نحن أحفاد شعب .. شيد بيبلوس .. وصور وصيدا .. وقرطاجة» .

فيكون (جبران) أديبًا .. يصارع لمثال بحث عنه طويلًا .. هذا المثال هو : (الذات اللبنانية) .

و (جبران) المعذب .. المحسد للأمة المعذبة .. يقولون عنه .. إن كان (نارسيسيًا) ـ نرجسيًا ـ .. حتى فى حسّه القومى .. بإيمان صادق .

وكما نعرف أن (سيجموند فرويد) رائد التحليل النفسى .. يفسر إيمان الإنسان بالله .. عملية خلق خيالى لا شعورى .. لكائن سام .. يسمى (الله) .. ويمثل فى الحقيقة أب العائلة .. الراعى لبنيه .. بعطفه ومساعدته .

والنظرية (الفرويدية) تنطبق على وضع (جبران) فى معناها السلبى .. أى رفضه لإله أبيه نتيجة رفضه للأب بالذات .. ومن هنا ولدت .. (الرؤيا الجبرانية) الخاصة بالله .. والخاصة برسالته .. وبكتابه (النبى) .. وميله إلى إذابة الشخص الإلهى فى الإنسان المتميز .. ونعنى بذلك .. ذاته هو .. (جبران) نفسه .

ونرى رغبة (جبران) إلى الانفلات النفسى نحو الطبيعة .. للخلاص من حياة شاذة .. يحياها .. ويحسّ بضريبتها .. إنه كائن يعيش بظل المرض .. والمعاناة .. التى بلغت عنده حدًا يتعدى الصبر .. إن حالة الوجدان عنده .. لا تتنفس إلا عن طريق المعاناة العاطفية .

فنراه يقول فى رسالة إلى (مىّ) :

« أنا يا (مىّ) .. بركان صغير .. سُدّت فوهته .. فلو تمكنت اليوم من كتابة شىء كبير .. أو جميل .. لشفيت تمامًا .. لو كان بإمكانى أن أصرخ عاليًا .. لعادت عافيتى .. هذه هى

علّتى .. هى علة فى النفس .. ظهرت أعراضها فى الجسد » .

★ ★ ★

إن المجهود الأدبى .. والفنى .. كان بابًا يتنفس منه (جبران) .. عن الكثير من طاقاته المكبوته .. ولو لم يلق من المجتمع .. ما لقيه من انتباه وتقدير .. ولم تعطه الحياة ما حظى به قبل موته .. لكانت هذه الحالة المكبوتة قد تحولت إلى شذوذ مرضى .. يتخطى الوعى الوجدانى .. ويجعله أسير هذيان لاواع .. أسير مرض نفسى حقيقى .. ومرض كهذا لا يؤمل شفاؤه .. إلا فى المستشفى الذى عولجت فيه الأديبة (ميّ) .

إنها هى أيضًا .. ضحية شذوذ (جبران) .. فلقد ابتلعت (ميّ) .. بعضًا من السّم الذى هيأته الطبيعة لجبران .. بوعى منه .. وبإرادة شبه صريحة .. لأنه شاء أن تولول عليه (ميّ) كما تولول كل عاشقاته .. لتقول كل منهنّ : «كان حبيبى .. مع أنه لم يكن» .

ولكن هناك من دافعوا عن اخلاص (جبران) فى حبه لـ (ميّ) .. وهناك من قالوا : إنه بالفعل كان يحبها .. وأنه لا يخطط بوعى وإدراك وقصد منه .. أن تحبه .. كما تحبه كل النساء .. ولكن هناك من يقول : بأنه لم يكن صادقًا فى حبه .. لا .. ولم يحب واحدة ..

إن كل من يحب .. كان يشرك فيها .. حبه لأمه .. وحبه لذاته .. ولم يكن الإخلاص إلا من جانب (ميّ) فقط .. (ميّ)

المسكينة .. التى ساقوها إلى مستشفى الأمراض العقلية .. جورًا .. وظلمًا وافتراءً .. وهى صامتة .. صامدة .. تجتر أحزان قلبها .. فى وحدة مريرة .. وحدة فقدانها للأهل .. للأب الحبيب .. للأم الرءوم .. للحب .. للثقة .. لغدر البشر .. واستسلمت لقدرها .. مساقة بذهول حزين .. لتلون الناس .. ويعرف الناس عنها .. أنها لم تكن مجنونة .. ولم تكن أبدًا .. مريضة النفس .. إنها شفافة الروح .. أديبة .. أحبت .. راهبة متبتلة تحب .. ولا تشرك .. فلم يكن (جبران) إلا حبها الأول .. والأخير .. إن (ميّ) .. لم تحب أحدًا فى حياتها .. إلا (جبران) .. وعاشت به راهبة متبتلة .. محبة .. مشوقة .. وعاشت أسيرةً لحبه ..

فهناك من زارها فى المستشفى .. وكانت ملتزمة الصمت .. والحزين دائمًا .. صامت باكٍ .. متألم .. وكان هذا الزائر هو (ألبير أديب) صاحب مجلة (الأديب اللبنانية) .. وحاول أن يدفعها إلى الكلام .. وكان كلما زارها .. جدد هذه المحاولات هو وغيره .. فكانت ملتزمة الصمت .. تجترّ آلامها وأحزانها .. وحبها .. ووحدتها .. وقسوة حياتها .. ممن خانوها .. وباعوها .

لقد أثر فيها غدر الناس .. من حولها .. وأثر فيها تصديق الناس لإشاعة جنونها .. وهى المكتملة عقلًا وفكرًا .. وروحًا .. المتسامية حبًا وعاطفة .. وسموًا .

وعندما فشل معها .. (ألبير أديب) فى حملها على الكلام .. فكر فى حلية يخرج بها مكنونات قلبها .

فذهب إليها ذات يوم .. وقدم إليها تفاحة .. وقال لها .. إنها من عند (جبران) .. فلمعت منها العينان .. وانفرجت الشفتان .. عن ابتسامة راعشة .. وهزّها الفرح .. فتكلمت .

★ ★ ★

يقولون أن العباقرة يتحكمون فى الناس من خلال شذوذهم الفكرى .. والعباقرة والأدباء يعتقدون أن ما يفعلونه هو الصواب .. ويعجز الناس العاديون عن فهمهم .. فيصفونهم بالجنون .. فما من أديب .. أو عبقرى .. إلا كانت صفته (الجنون) لأنهم متسامون فى عواطفهم ومشاعرهم وأفكارهم .. وقد يكون التسامى إلى مستوى الأديب .. والعبقرى .. صعبًا جدًا .. كالتهافت إلى مستوى الجنون .. فيتسم الواحد بصفات الآخر .. ولو فى الظاهر .. لتضيع الحقيقة .. كما ضاعت فى معرفة حقيقة (جبران) .

★ ★ ★

جبران الألم .. الحب .. والموت

جبران الألم .. الحب .. والموت

ومن حقنا .. وحق الأدب .. وحق الحب .. وحق حب (مارى هاسكل) و (جبران) .. ذلك الحب الأول فى حياته .. أن نعيش صفحات من حبهما .. فى رسائل متبادلة .. لنكتشف .. هل ما قيل عن (جبران) حق من أنه يود أن يضم (مارى) إلى مجموعة النساء اللائى أحببنه ؟.. لتقول كل واحدة منهن بعد وفاته :

«كان حبيبى .. مع أنه لم يكن» .

أم أن حبه .. دائم اللهث على مصادر الأمومة .. التى تكتمل بها عقدته الأولى .

★ ★ ★

جبران .. شاعر بالسليقة .

فنان بالفطرة .

كاتب .. مفكر .. متصوّف .

أحب .. وأحب .. وأحب .

أحب نفسه .. وحسّه .. وجماله .

فخلد .. وتخلّد .

غرام أسمى من الغرام .

أحب حبيبة .

فيها عظمة .. وزهد .. ونبوغ .. وطموح .

فيلسوف حالم :

يقـول :

« قم يا قلب واخرج مترنمًا .

فمن لا يشرك الصبح بأغانيه .

كان من أولاد الظلام .

مات أهلى .

أنا غريب .

جبت الأرض .. شرقها وغربها .

لم أجد مسقط رأسى .

ولا لقيت من يعرفنى .

جلست مع من أحبته نفسى .

أصغيت .. ولم أنبس بنبت شفة .

فى صوتها قوة .

طارت نفسى فى فضاء لانهائى .

ورأيت الكون حلمًا .

والجسد سجنًا » .

★ ★ ★

حبيبتى (مارى) ..

بفضل (مارى) .. غدوت فنانًا .

بفضل حبها .. غدوت رسامًا .

★ ★ ★

وضباب الحياة .

ويا أعز إنسانة .

فى شحوب الحياة .. متى تولى النفس القنوط .. أتلو كتبك .

متى اكتنف الضباب ذاتى .

أغترف منها .. فأقرأ بنهم .

كتبك تذكرنى (بذاتى الصادقة) .

كتبك تربأ بى .. تنأى بنفسى عن الدميم والمنحط .

عن درك الحياة .

كل امرئ يا دنياى يحوجه ملاذ .

وملاذ روحى .. تحيا فيها معرفتى .

بحناياك الحادبة .. (خليـل)

★ ★ ★

وفى ليلة الميلاد ..

« عزيزتى (مارى) :

كلأك الله برضاه .. حبيبتى .. ذلك المجهول علا شأنه .. وهبَ المسيح الروح الخالد .. فليفجر قلبك .. بفرح عظيم .

عسى أن يمر عيد الميلاد وسعادتك وارفة .. وعسى أن يتكرر سنة إثر سنة .. وفى سلام تعيشين .

أفكر فيك .. كما لا أفكر بإنسان .

وبينا أنا أفكر .. تزهو الحياة .. وتينع ثمراتها .. ألثم يدك .. يا (مارى) الطيبة .. لقد زكا حسنك بتقبيل يدك .. أكون مباركًا لنفسى اللاغية » .

(خليل)

★ ★ ★

وفى عام ١٩٠٩ :

وفقدت أبى ..

« العزيزة (مارى) :

فقدت أبى .. قضى فى البيت العتيق الذى رأى النور بين جنباته .. منذ نيف وخمس وستين سنة .. كتاباه الأخيران .. يستدران عبرات عينى .

باركنى على فراش الموت .. دعا لى .. وهو يلفظ أنفاسه الأخيرة .. أعرف أن مثواه فى حجر الله .. ورغم ذلك .. لا أملك نفسى من التلهف .. أنا أتروض على نار الجوى .

أشعر بيد الموت الثقيلة قربت جنبى .. أرى ظلال الماضى المعتمة .. حينما كان هو .. وأمى .. وأخى .. وأختىّ يعيشون .. ويبتسمون لوجه الشمس .. أين هم الآن .. أين هم ؟ .. » .

★ ★ ★

عام ١٩١٠ :

« حبيبتى :

أنا فى نيويورك يا أعز الناس .. أتشوّق الابصار إلى رؤيتك .. وقلبى مفعم شوقًا إليك .

اكتبى لى .. » . (خليل)

★ ★ ★

- وقالت مارى :

« خليل يشاركنى طعام العشى .. بعد عودته من باريس ..

★ ★ ★

ما أتعسه بوحدانيته .. منعزل .. منفصل عن الخلق .. لاصديق .. ولا رفيق » .

وقالت فى ٧ ديسمبر ١٩١٠ :

« قفل راجعًا .. بعد غيبة امتدت سنتين .. وأربعة أشهر .. ذهب ليصقل فنه .. كحلت عيناى بمرآه .

التقينا فى الأسبوع الواحد .. مرتين .. وربما أكثر .

ما أصعب الرسم .. كلما حاول رسمى .

لقد قال لى :

« أنك يا عزيزتى تحتلين لبى .. وتتربعين فى قلبى » .

ولكى أهون عليه الأمر .. غفوت فى مقعدى .. وطفق هو يرسم .. فانتهى فى نصف ساعة .. أنهى رسمًا لوجهى .. فرضى عنه .. سر كثيرًا .. فاضت الغبطة من أساريره .. واستبشرت أنا .. التقاطيع دقيقة .. والقيم الخفية بارزة .. وجهى تنم عنه نظرتى » .

★ ★ ★

وفى عام ١٩١١ :

« أحببته .. لا يفصل بين قلبينا حاجز .. عقدت العزم على نهج الطريق المرسوم .. فكرت فى الزواج .. وكنت أسكب العبرات .. كانت دموع فرح وأمل .. العقبة الكأداء .. هى سنى .. نغّصنى فكر .. زواجه يجب أن يكون بادئه .. عظمته .. خليل يعوزه حب مستمد من رؤيا .. ومن بعد .. يلتمع نجمه .

صاحبة هذا الحب .. امرأة سواى .. أمر محتم .. ولن أتمرد على المجهول .. مهما كانت خسارتى فيه .. ضنًا بعبقريته .. ومجده .

وما أن أقبل على اليوم حتى ابتدرته :

ـ لن أفكر فى الزواج .. ولو اشتهته نفسى .. نفسى الظامئة . وشده .. وشدهت .. ولكننى أردفت :

ـ أنا لست لك .. أنا أهواك .. إلا أن حبى الصافى .. يمنعنى من تدمير مستقبلك .

أجل .. عمرى أكبر من عمره .. وأمامه الأيام والسنون .. والقدر يفتح له ذراعيه .

أجهش (جبران) بالبكاء .. فأتيته بمنديل مسح مآقيه .. وتمتم بكلمة واحدة : « أحبك » .

وجعلنى بضمة له .. إلى حين .. لثمت راحته .. بعد النشوة وتناولتها .. فقبلتها .. وبللتها بدمعى .. كانت يده قلبًا نابضًا .

★ ★ ★

وعلى الباب هتف :

ـ (مارى .. مارى) .. أعطيتنى قلبًا .

خيم على سلام .. وأضاء أنقى نور .. فأجبت فى تؤدة :

« شكرًا لك يا ربى » .

« ما أسعدنى .. ضحيت .. بيد أن التضحية زادتنا قربًا » .

وفى نهاية يومياتها كتبت :

« استعرضت كنوزك .. ووضعت بعضها على الجدران » .

(نافورة الألم) .. علقتها مكان (مارى) .. فتماوجت كزهرة .

(أشباح الليل) وضعتها قرب البيان .. (القلب المتألم) أدنيتها من المدخل .. بألوانها المتقلبة .

قل كل شىء .. كل شىء .. لا تستبق كلمة .. انفث ما فى نفسك .. فقطرات فمك .. عذبة رقيقة .

★ ★ ★

وكانت مارى تبعث إليه بالزيت للشعر .. والمال .. لمعونته .

وقال لها :

« لتبارك السماء يديك المفتوحتين .. هنئت ليلتك يا حبيبة » . (خليل)

وكان فى حاجة إلى المال .. فكتبت (مارى) رسائل شتى .. لمن تتوسم فيهم الخير .. وساعدوه .. وصادف نجاحًا .. فرسم للشاعر والموسيقى (آرثر فيرويل) صورة رائعة .

★ ★ ★

وكتب (لمارى) :

« حبيبتى ..

رسم السيد (فيرويل) من أجمل الرسوم التى صنعتها ريشتى .. وقال لى باشًا : « إنها تعبير صادق عن باطن النفس » .

الليل فى منتصفه .. وأنا كليل عليل .

أود أن أسند رأسى على كتفك .

أود أن تلمسى وجهى الملتهب .. المسية يا حبيبة ، ولو من بعيد .

لا أنساك .. » .

(خليـل)

★ ★ ★

(مارى .. مارى) .. يا أم قلبى .

(مارى) التى أهوى ..

وأخيرًا .. صدر كتاب (الأجنحة المتكسرة) .

وكتبت مارى فى يومياتها :

«وصل كتاب (الأجنحة المتكسرة) ، وبخط يده .. كتب لى :

«إلى المشرئبة إلى الشمس .. التى تلمس اللهب بأصابع لا ترتعش .. إلى (مارى هاسكل) .. أهدى الكتاب» .

الغلاف .. أخضر اللون .. رمادى .

★ ★ ★

وفى عام ١٩١٢ :

« (مارى) .. أتتركيننى أضل .. أم تقومين رشدى .. فتسمحى لى بقضاء أيام معك فى القرب الفسيح .. لتطوقك أجنحة السماء الزرقاء يا (مارى) .

(خليـل)

« (مارى) .. أنا ظامئ .. ظامئ ..

أحبك أنا .. أحبك ..

أتحبيننى ؟ ..

أنا ظامئ .. ظامئ ..

أقبل يدك .. وعينك ..

حلمت بك ..

وكأنك تقولين لى ..

إنس القبلة ..

كل شىء جميل .. متى تراءى لى روحك ..

اهنئى لينصرك الله » .

(خليـل)

★ ★ ★

وماذا تقول (مارى هاسكل) فى مذكراتها .. عن حب (جبران) :

«فى كل ما يتعلق بالجنس .. يبدى التردد .. حبه هادئ كطبيعته .. هو كالطبيعة .. هو .. والطبيعة حبيبته .. لهذا هما يحبان بعضهما البعض » .

وكان حبه لـ (مارى هاسكل) .. التى تكبره كثيرًا .. حبّ يمتزج فيه تعطشه لحنان الأم .. ومزجه فى خياله .. بصورة قدسية لمن احتضنته .. ورعته .. وأعطته الكثير من فيض حبها وحنانها .. ومالها .

وتقول (مارى هاسكل) :

«لا شىء ينطق برقة (خليل) .. وطيبته .. ونبل نفسه مثلما تنطق استجابته النفسية للمحبة السامية تتمخض بلا انقطاع فى روحه .

طرقت موضوع العلاقة الجنسية التى عزلناها .. فلم نقربها .. وقالت :

«وأنىّ لهذا عاجزة كليًا .. عن تقدير مدى لزومها للروح .

وقالت : وأنت يا خليل أقرب إلىّ .. ولا أخالك أشد قربًا من امرأة أخرى .

فهتف يقول .. وكأن كلامه ومضة :

«لم أقترب من رجل .. ولم أقترب من امرأة بنسبة واحد فى المائة .. من اقترابى منك أنت» .

★ ★ ★

وفى عام ١٩٢٩ :

كتب إلى (مارى هاسكل) :

« عزيزتى :

نعم .. فى (بوسطن) أنتابنى المرض .. فى فصل الشتاء .. انهيار عام .. انتهى بآلام حادة فى ساقى .. بيد أنى اجتزت مرحلة الخطر .. بإرادة وقوة » .

★ ★ ★

وفى عام ١٩٣٠ :

« اطلبى يا (مارى) .. اطلبى شيئًا .. خدمة .. صنيعًا .. أحبّ أن تطلبى .. وسأودى بقلب راض .. وبنفس مطمئنة .. وبشعور الامتنان .

بارك الله لك .. وأبقاك » . (خليل)

★ ★ ★

وإلى (مىّ) زيادة يقول فى عام ١٩٣٠ :

« عزيزتى (مىّ) :

لدى أمور كثيرة .. أريد أن أقولها عن العنصر الشفاف .. وغيره من العناصر .. ولكن علىّ أن أبقى صامتًا عنها .. وسوف أبقى صامتًا حتى يضمحل الضباب .. وتنفتح لى الأبواب الدهرية .. ويقول لى ملاك الرب : تكلم .. فقد ذهب زمن الصمت وسر .. فقد طال وقوفك فى ظلال الحيرة .. متى يا ترى تنفتح الأبواب الدهرية .. هل تعلمين متى تنفتح الأبواب .. الدهرية .. ويضمحل الضباب ؟.

إننى أصرف حياتى مترقبًا حدوث ما لم يحدث بعد .. وما أشبهنى بأولئك المقعدين الذين كانوا يجلسون بجانب البحيرة .. مترقبين هبوط ملاك .. يحرك الماء .. أما الآن .. وقد حرك الملاك البركة .. فمن يلقينى فى الماء .. إننى أسير فى ذلك المكان المهيب المسحور .. وفى عينى نور .. وفى قدمى عزم » .

(جبران)

★ ★ ★

وفى عام ١٩٣١ .. كتاب (جبران خليل جبران) .. إلى (مارى هاسكل) .. يقول :

« صدر كتاب (آلهة الأرض) منذ يومين .. أرسل النسخة المخصصة لك .. عسى أن تعجبك الرسوم .. يا نفسى .. يا نفسى .. كيف أوجهك ؟

أحبك الله » . (خليل)

★ ★ ★

وإلى (ميّ) زيادة :

« عزيزتى (ميّ) :

لقد وجدت فى المرض لذة نفسية تختلف بتأثيرها عن كل لذة أخرى .. بل وجدت نوعًا من الطمأنينة يكاد يحبب إلىّ الاعتلال .

أتعلمين يا (ميّ) .. أنى ما فكرت فى الانصراف .. الذى يسميه الناس موتًا .. إلا وجدت لذة غريبة .. وشعرت بشوق هائل إلى الرحيل » .

(جبـران)

★ ★ ★

ومن الملاحظ أن (جبران خليل جبران) .. كان يوقع رسائله .. إلى (مارى هاسكل) باسم (خليل) وإلى (ميّ زيادة) .. باسم (جبران) .. وكانت خطاباته إلى (مارى هاسكل) .. تفيض حبًا وهيامًا .. وإلى (ميّ) كانت تشكل نوعًا من التبادل العلمى والثقافى .. وكانت تربط بين (جبران) .. و (ميّ) .. علاقات شعورية فكرية وثيقة .. وكان (جبران) يرسل إلى (ميّ) .. كل كتاب جديد يؤلفه .. ويطلب إليها أن تبدى رأيها فيه .. فلما نشر كتابه (المواكب .. والمجنون) .. أبدت (ميّ) .. رأيها فيهما (بالهلال) .. وفى كتاب خاص .. وجهته إليه .. فأجابها .. مقدرًا فى البدء صراحتها ولباقة تحليلها .. وسعة اطلاعها .. ثم راح يوضح آراءه .. محاولًا أن يبرر موقفه من (نيتشه) ومن بعض آراءه فى الشهوة وردت على لسان المجنون .

وانتقل (جبران) إلى كتابة (دمعة وابتسامة) .. وقد انتقدت (ميّ) لهجته المضطربة .. وصبيانية تفكيره .. وسألت صاحبه عما دعاه إلى نشره .. فقال :

ـ لقد كتبت .. ونظمت دمعة وابتسامة .. بين الطفولة والشباب .

وقد سألته (ميّ) .. كيف يكتب .. وكيف يأكل .. وكيف يقضى حياته اليومية .. كما استفسرت حول مكتبته .. وبيته .. وحول كل ما يتعلق بشخصه من ظاهر وباطن .. فأجاب على بعض أسئلتها يقول :

«ما أعذب هذا السؤال .. وما أحب الجواب عليه يا (ميّ) .. هذا نهار .. تدخين .. فقد حرقت منذ صباحه .. مليون لفافة (كانت سبعمائة فشطبها) .

والتدخين عندى لذة .. لا عادة .. وقد يجىء الأسبوع الكامل دون أن أدخن سيكارة واحدة .. قلت حرقت مليون سيكارة .. والحق عليك فأنت الملامة .. فلو كنت وحدى فى هذا الوادى .. لما رجعت أبدًا ..

وأما البذلة التى أرتديها اليوم .. فمن عادتى أن أرتدى بذلتين فى وقت واحد .. بذلة من نسيج النساجين .. وخياطة الخياطين .. وبذلة من لحم ودم وعظام .. أما اليوم .. فإننى أرتدى ثوبًا واحدًا طويلًا .. وسيعًا .. عليه أثر الحبر والألوان .. وهو بالإجمال .. لا يختلف عن ملابس

الدراويش .. إلا بنظافته .. أنا أكره ملابس رجال الغرب .. فهى بدون وزن .. ولا قافية .. وإذا عدت إلى الشرق .. فلن أرتدى إلا الثياب الشرقية .. القديمة .

أما مكتبى .. فلم يزل بدون سقف .. ولا جدران .. وأما بحار الرمل .. وبحار الأثير .. فهى كما كانت بالأمس عميقة .. كثيرة الأمواج .. وبدون شواطئ .. وأما شراع السفينة التى أخوض بها هذه البحار .. فهو غير منشور .. فهل تستطيعين نشر شراع سفينتى .

★ ★ ★

ثم راح يصف نفسه .. بأسلوبه الرمزى .. فيقول :

وماذا عسى أن أقول عن رجل يوقفه الله بين امرأتين .. امرأة تحول من أحلامه يقظة .. وامرأة تحول من يقظته أحلام .. (وكان يعنى بذلك الأولى .. (مارى هاسكل) .. والثانية (ميّ زيادة) .

ماذا أقول عن رجل يضعه الله بين سراجين .. ماذا أقول عن هذا الرجل .. هل هو كئيب ؟.. وهل هو سعيد ؟.. هل هو غريب عن هذا العالم ؟ .

لا أدرى .. ولكننى أسألك إذا كنت تريدين أن يبقى غريبًا عنك .. هل هو غريب ؟ .. وليس فى الوجود من يعرف كلمة عن نفسه .. ولا أدرى .. ولكننى أسألك .. إذا كنت لا تريدين مخادثته بهذه اللغة .. وأنت أعرف الناس بها .. فى هذا العالم .. كثيرون لا يفهمون لغة نفسى .. وفى هذا العالم أيضًا

كثيرون .. لا يفهمون لغة نفسك أنت .. وأنا يا (ميّ) .. من الذين حبتهم الحياة بالأصدقاء .. والمحبين .. والمريدين .. ولكن قولى لى .. هل يوجد بين هؤلاء الغيورين .. المخلصين .. من نستطيع أن نقول له :

«ألا فاحمل ضلينا يومًا واحدًا ..

هل منهم من يعلم أن وراء أغانينا لا تسجنها الأصوات .. ولا ترتعش بها الأوتار ؟.. هل بينهم من يعلم الفرح فى كآبتنا .. والكآبة فى فرحنا .

★ ★ ★

وفى ١٢ نيسان (أبريل) ١٩٣١ الساعة ١١ و٢٨ دقيقة .. انطفأت الشعلة ..

«خليل قضى نحبه .. مضى فى سبيله .. نأخذه إلى (بوسطن) يوم الاثنين» .. (مارى جبران)

وكان القضاء كما سجل كالآتى :

«فى صباح يوم الخميس .. صعدت أنا (جوهانس) المسئولة عن المرسم الخاص ب (جبران) .. سلالم البناية رقم ٥١ غرب نيويورك» ..

كانت تحمل الفطور لـ (جبرن) ..

كانت قلقة موجسة خيفة ..

أصدقاؤه المقربين شاركوها خوفها ..

دخلت المرأة .. فهالها ما شاهدته من شحوب فى وجهه .. وفتور فى حركته ..

كان مرضه غامضًا ..

ارتاعت المرأة المحبة .. سألته سؤالًا .. ثم ولت راجعة بسرعة .. واتصلت بالسيدة (ليونوبيل جيكوتبس) ، كانت هذه السيدة فى أيام مضت .. تقطن مع زوجها فى البناية .. فى شقة تلى شقة (جبران) ..

ومع انهما انتقلا إلى شقة بعيدة .. إلا أن العلاقة ظلت وطيدة .

طلبت السيدة (جيكوتبس) الطبيب .. وألحت عليه بالإسراع .. ولما جاء أجرى المعاينة .. وأصر على نقل (جبران) إلى المستشفى .. ولكنه أبى .. بيد أنه رضخ أخيرًا على أن يجرى حمله إلى المستشفى فى اليوم التالى .

بعد الظهيرة .. جاءت السيدة (باربارا يانج) فقضت مع (جبران) ساعات .. تحدث إبانها .. عن أعماله المنتهية .. والتى لم تنته .. وقال : «هاتان اليدان .. أولى بهما أن تصنعا .. قبل أن تذهبا» .

وفى حوالى الثامنة والدقيقة الثلاثين .. من تلك الليلة .. عادت السيدة (جيكوتبس) برفقة الطبيب .. وبحثوا للمرة الثانية .. مسألة انتقاله إلى المستشفى ..

ولكن (جبران) رفض بكل إصرار وتشبث بقضاء الليل فى مرسمه .

وهكذا كان ..

لازمته (باربارة يانج) حتى هزيع متأخر .. حدثها عن لبنان .. فأطنب .. وعن أمه المتوفاة التى قدس ذكراها .. وعن أخته (ماريانا) المقيمة فى (بوسطن) .

لم يتطرق إلى حالته .. تجنب الخوض فى حديث المرض .. سارت أفكاره فى الليل مسيرة طويلة .. وتحرك روحه .. بحيوية حركة الحياة والموت .

حمل إلى المستشفى (سان فنسنت) فى العاشرة من صباح اليوم التالى .. ووصلت أخته (ماريانا) برقية من المستشفى .. أو الطبيب .. تستعجلها الحضور .

اتصلت (ماريانا) .. بقريبيها (روز دياب .. وعساف جورج) فأطلعتهما على النبأ المحزن .. ثم ركبت أول قطار .. متجهة إلى نيوريوك .

فى المستشفى .. قالوا لها .. أن (جبران) دخل فى ذهول كلى .. ولا يستطيع أن يتبين الناس .. وقال الطبيب أيضًا .. إنه يائس من حالته .. وأن موته أمر محتوم ، وأن الطب يقف عاجزًا مشلول اليد .

(خليل جبران) يموت .. أمر لا يصدق .. ولكنه الواقع المرير .

(خليل جبران) يموت .

اتصلت (باريارا يانج) بمكتب مجلة (الدنيا) السورية .. وهى مجلة شهرية تصدر فى نيويورك ..

ورد عليها «ميشا» (ميخائيل نعيمة) هاله النبأ .. فسارع إلى المستشفى .

استقبلته (باربارا) .. وأفضت إليه بما آلت إليه حالة (جبران) .. فتمالك (نعيمة) نفسه .. وأجاب :

ـ هل أبدى رغبة فى الاعتراف والتناول ؟ .

قالت : سألته راهبة .. إن كان كاثوليكيًا .. فأجاب بصوت أجش .. «كلا» .

ودخل أثناء ذلك .. الأب (فرانسيس واكيم) .. راعى كنيسة القديس يوسف المارونية فى نيويورك .. ورفع عقيرته أمام المحتضر بصوت جهير : (جبران .. جبران) .

و (جبران) لم يجب ..

وردد الكاهن الكلمة .. وتفطر قلب (باربارا) .. هالها هذا التصرف .. هالها جلف الكاهن .. أقبلت على (نعيمة) ترجو منه أن يطرده من المستشفى .. فقد حقّر القيم .. وشوّه اللحظة الخالدة .

ووقف (نعيمة) .. و (باربارا) فى خشوع .. قرب الفراش الراقد عليه جسد طاهر .. تقترب منه روح طاهرة .

ران السكون على الغرفة المجاورة .. الذين فيها صمتوا .. وكأن على رءوسهم الطير .. صمتوا صمت الموت .

فى الغرفة المجاورة .. كانت (ماريانا) وابنا عمها .. والسيدة (جيكونبز) .. التى لم تبرح المستشفى .. كما كان فيها .. (وليم براون مالوفى) .. والآنسة (أديل واطسون) .

لفظ أنفاسه فى الدقيقة الخمسين بعد الساعة العاشرة .. من يوم الجمعة الموافق ١٠ أبريل ١٩٣١ ـ الجمعة الأولى بعد عيد الفصح .

قال (نعيمة) .. أن سبب الوفاة هو التلف الكبدى .. والتدرن الذى ألم برئته .

بعثت (ماريانا) ببرقية إلى (مارى هاسكل) .. والسيدة (فلورنس فى جورجيا) .

(فلورنس) أحاط بما كان يوثق بين (جبران) و (مارى) من عرى .. كان ممتعضًا فى باطنه .. ولكنه كان راضيًا .. كزوج .. وهو عالم أنه تزوج وهو مطمئن إلى سلامة تلك العلاقة وطهارتها .. ولكنه لم يشجع (مارى) .. حينما وصلت البرقية .. على الذهاب لتشييع الجنازة مع المشيعين .

غير أن (مارى) .. ضربت عرض الحائط بجميع الاعتبارات .. فأبرقت إلى (ماريانا) .. تنبئها بأنها ستصل إلى بوسطن فى الساعة السابعة من صباح يوم الاثنين .

ومات (جبران) .

سكن بعد اصطخاب .. بعد حركة ذهنية لم تفتر .. بعد نشاط تألقت إبانه .. جذوة سامية .. رفعت الرءوس .

سُجِّى الجثمان فى ردهة الموت فى شارع لكنسجتون .. بالزنبق والسوش .. حيث بقى يوم السبت والأحد .. راقدًا فى جلال ومجد .

وفى يوم الاثنين .. نقل الجثمان إلى (بوسطن) .. ورافقه أعضاء «رابطة الأدب الحديث» .. التى ساهم فى تأسيسها .. وكان رئيسًا لها قبل وفاته .

وقف القطار فى الساعة الخامسة .. فاستقبله الأب الدوبهى راعى كنيسة سيدة الأرز .. ثم حمل النعش الملتف بالعلم السورى .. إلى جمعية السيدات السوريات .

وفى الثامنة من مساء تلك الليلة .. وصلت (مارى) من (بوسطن) .. فانضمت إلى (مارى) و (ماريانا) .. وتجمع أصدقاء (جبران) .. فتناولوا مع (مارى) و (ماريانا) .. وجبة خفيفة .. كسروا الخبز له .. كسروه باسمه .. رشفوا القهوة .. قالوا :

«عشاء خليل الأخير» .

صلى عليه فى اليوم التالى .. وضع على الجنازة فى كنيسة سيدة الأرز .. ثم شيع بموكب كبير .. إلى قبر .. فى قمة تل .. اتفق الرأى على لحده فيه لمدة قصيرة .. فقد عزمت (ماريانا جبران) .. أن تدفن شقيقها .. ليس فى أمريكا الغربية .. بل فى لبنان .. بين أرزاته الحبيبة .. فى الثرى الحبيب .

وفى السادس عشر من نيسان .. انطلق قطار الليل إلى نيويورك .. وهو يحمل فى مقطورة .. (مارى هاسكل) .. و (ماريانا جبران) .. و (روز دياب) .

وصلن فى الصباح .. فاسترحن فى الفندق من وعثاء السفر .. وتوجهن بعد ساعة إلى مرسم (جبران) .. إلى محرابه .. حيث أنفقن ساعات يرتبن أمتعته .. ويجمعن أوراقه .. ومخلفاته .

جاء الموت .. فأصفى هذه القلوب الرقيقة .. بعيونهنّ رثين الراحل الإنسان .. وبقلوبهنّ بكين الإنسانية التى تجسمت فيه .

ذهبت (مارى) و (ماريانا) و (بربارا يانج) .. إلى مكتب (وليم ساكس) وخضن معه فى حديث طويل عن إدارة تركة (جبران) .

وأجمع الرأى .. أن تقيم (باربارا) فى المرسم .. ريثما تسوى الأمور فى كل شأن من شئون (جبران) .. كما جرى تقدير مبدئى لتركته .. فبلغ ما خلفه (جبران) .. قرابة خمسين ألف دولار .

وفتحت وصية (جبران) فى وقت لاحق .. وقرئت .

كان قد أوصى بكل ما يملكه إلى شقيقته (ماريانا) .. وإلى (مارى هاسكل) .. وإلى مسقط رأسه (بشرى) .

«كل شيء فى مرسمى .. من رسوم وكتب .. وقطع فنية .. أخص به مارى هاسكل مينيس» .

واتصلت (مارى) بمتحف الفنون .. ودعت الفنيين إلى مشاهدة مجموعة الرسوم الخاصة .

فاختار المتحف خمسة منها :

١ ـ رأس جون مانسفيلد .

٢ ـ ألبرت رايدر .

٣ ـ نحو اللانهاية .. أو (جبران والموت) .

٤ ـ انحدرت من الزمان .

٥ ـ دوامة الحياة .

موته كان كالنهار .. زاد أبصار المحبين نورًا .

موته كان المامة .. ثم وداعًا .

نفوس كثيرة لدعها موته .. فكادت تزهق ..

نفوس كثيرة لهثت .. ولكنها كتمت .

(مارى) الحزينة بإيمان .. أمضت نهار العشرين من مايو / أيار .. فى المرسم .. تتفقد .. وتراجع .. كانت وحدها .. مع فكرها .. ومع ذكرياتها .

اتصلت بعد ساعات بنعيمة .. فجاء مسرعًا .. وقضى معها وقتًا يعينها فى مهمتها .

عثرت (مارى) على كتاباتها (لجبران) .. المكاتبات التى بعثت بها إليه .. بعد لقائهما .. وأثناء مقامه فى باريس .. وإقامته

فى (بوسطن) .. وجميع المكاتبات التى خطتها له فى عشرين عامًا .. مئات من الرسائل .. تشمل عشرين حولًا من الزمان .. عثرت عليها (مارى) فى مرسم (جبران) .. ووطنت النفس على إحراقها ..

واتفقت مع (باربارا يانج) على إزالتها .. وطمسها .. ولكنها أشفقت على نفسها .. وعلى الذكرى .. وعلى التاريخ .. فجمعتها بمحبة .. وحملتها معها إلى (سافانا) .. ومن هناك .. أرسلت إلى (باربارا) .. كتابًا قالت فيه : «قلبى لا يطاوعنى .. أنا آمنت (بجبران) .. وبعظمة (جبران) .

إن كتبى له .. وعلاقتى به ملك للتاريخ .. إنها جزء من التاريخ » .

وضمت رسائله إلى رسائلها .. ووضعت الأوراق الثمينة هذه فى حرز .. وبقيت فى مكانها .. إلى أن حولت بعد سنين .. إلى جامعة (نورث كارولينا) .

★ ★ ★

وكتبت (ماريانا) إلى (مارى) .. تنبئها أنها اتخذت .. الترتيبات لنقل جثمان (جبران) إلى لبنان .

ففى الثالث والعشرين من (تموز) .. تحت رذاذ خفيف .. نقل الجثمان إلى السفينة .. بحضور مائتى لبنانى .

مائتان .. وقفوا بخشوع يرمقون الروح .. بعد أربعة أسابيع .. فى يوم الجمعة الموافق ٢١ آب سنة ١٩٣٣ رست السفينة فى ميناء بيروت .. حيث استقبل المندوب

السامى .. الجثمان العائد إلى وطنه .. صلى عليه .. ثم حمل إلى قرية (بشرى) .

الموكب الطويل .. موكب الحياة .. توقف فى كل مكان مر به .. موكب الموت الذى يحمل الحياة .. لم يصل إلا والشمس تضرج الأفق .. بحمرة الغسق .

وكانوا قد نصبوا منصة فى ساحة (بشرى) .. مزدانة بالنباتات والورود .. والرايات .

لاقى الموكب .. رجال يمتطون صهوات الجياد .. رافقوه فى درب النصر .

كان حقًا درب النصر .. لا درب الموت .. كان النصر الذى أحرزه رجل من لبنان اسمه (جبران) .

ودقت الأجراس .. وكانت تردد آيات النصر .

«جبران عاد منتصرًا» .

انتصر على الأهواء .. على الترّهات .. عاد يحف به فرسان .. ويتبعه رتل طويل .. عاد إلى الأرض الحبيبة .. إلى الأرض الطيبة .. التى تغنّى بها .. ومجد .. وبارك .

★ ★ ★

أما (مارى) الحبيبة .. فلم يتغير شىء فى حياتها بعد موته .

عاشت مع زوجها فى (سافانا) حياة هادئة .. وادعة .. واجتزمته أصدق احترام .. حتى قضى نحبه فى (أيلول من عام ١٩٣٦ .. و (مارى) اكتهلت .. بلغت الستين .. وأصبحت فى الثالثة والستين .

وبعد موت زوجها .. مكثت بضع سنين .. فى المنزل النفيس .. الحاوى لكل ثمين بديع من الرياش .

وتنازلت رويدًا رويدًا .. عن كل ما غلا ثمنه .. إلى الأصدقاء والمريدين .. وذوى القربى .. وما عتمت أن قطنت فى شقة صغيرة متواضعة .

ولكنها قبل موتها بخمس سنين .. لجأت إلى المستشفى بعد أن انتابها المرض العضال .. وأنهكها داء المفاصل .. فأفقدها الذاكرة .. وقوة التمييز ؟

وماتت (مارى هاسكل) .

وقال عنها ابن شقيق زوجها .

« مع قلة ما ملكته .. فإنها وهبت أكثره .. وعاشت على الحصة التى أوقفها عليها زوجها الراحل .

الحصة .. أو الوقف .. هذه .. تدوم ما دامت هى على قيد الحياة .. ولا تستطيع بحال التصرف فيها بالبيع .. وبرغم ذلك .. فإنها قترت على نفسها .. لتجد فضلات تتبرع بها فى وجوه الإحسان .

ولما وهن جلدها .. وعجزت عن خدمة نفسها .. قررنا .. أنا وهى والخادمة .. أن تنتقل إلى المستشفى » .

وانتقلت راضية إلى المستشفى .. عاشت فيه .. قانعة .. منتظرة .

ووافتها المنية .

وجاء فى وصيتها :

«لا أريد مأتمًا .. احرقونى بهدوء .. وصمت .. احرقوا الجثة .. واذروا الرماد .. أضيفوا اسمى إلى اسم زوجى على بلاطة الضريح !

«مارى اليزابث هاسكل ..

زوجة فلورنس مينيس الثانية ..

توفاها الله فى ... ... » .

وهكذا كان .. وأضيف التاريخ .. تشريف الأول عام ١٩٦٤ .

★ ★ ★

جبران .. فن وخلود

هذا الشاعر .. الرقراق .. الصافى الأديم .. المنساب الكلمات المنغمة .. بنغم الحكمة والمعرفة ..

إنها النفس الشفافة .. التى ترى ما وراء الحجب .. وتستشف الغيب من شدة حساسيتها .. وما أجمل وأصدق تعبيراته :

« ما شربت كأساً علقمًا .. إلا كانت ثمالتها عسلًا .. وما صعدت عقبة حرجة .. إلا بلغت سهلًا أخضر .. وما أضعت صديقاً فى ضباب السماء .. إلا وجدته فى جلاء الفجر .. ».

« وكم مرة سترت ألمى .. وحرقتى برداء التجلد .. متوهمًا أن فى ذلك الأجر والصلاح .. ولكننى لما خلعت الرداء .. رأيت الألم قد تحول إلى بهجة .. والحرقة قد انقلبت بردًا .. وسلامًا .. »

« الشاعر .. هو ذلك المتعبد .. الذى يدخل هيكل نفسه .. فيجثو باكيًا .. فرحًا .. نادبًا .. مهللًا .. مصغيًا .. مناجيًا .. ثم يخرج .. وبين شفتيه .. ولسانه أسماء وأفعال .. وحروف .. واشتقاقات جديدة .. لأشكال عبادته .. التى تتجدد فى كل يوم .. وأنواع انجذابه التى تتغير فى كل

ليلة .. فيضيف لعمله هذا .. وترًا فضيًا إلى قيثارة اللغة .. وعودًا طيبًا إلى موقدها ..

★ ★ ★

بالله يا قلب .. اكتم هواك ..
واخف الذى تشكوه .. عمن يراك .. تغنم ..

من باح بالأسرار ..
يشابه الأرعن ..
فالصمت والكتمان ..
أحرى بمن يعشق ..
بالله يا قلب .. اذا أتاك ..
مستعلم يسأل .. عما دهاك .. فاكتم ..

الشاعر أبو اللغة .. وأمها .. تسير حيثما يسير .. وتربص أينما يربص .. واذا ما قضى .. جلست على قبره باكية .. منتحبة .. حتى يمر بها شاعر آخر ويأخذ بيدها ..
واذا كان الشاعر أبا اللغة .. وأمها .. فالمقلّد ناسج كفنها .. وحافر قبرها ..

★ ★ ★

هذا ما يؤكده (جبران خليل جبران) الشاعر .. فى كتابه (البدائع والطرائف) والذى جال فيه بين الشعراء والفلاسفة .. يقدم لكل منهم نموذجًا من نماذج فنه .. فعاش مع ابن الفارض .. والمتنبى .. وأبى العلاء .. وابن سينا .. وأبو نواس .. وكان له .. لكل منهم .. إعجاب وتمجيد ..

«وقد تلتقى بين صباحك ومسائك برجلين .. فيخاطبك الأول وفى صوته أهازيج العاصفة .. وفى حركاته هول الجيوش .. أما الثانى .. فيحدثك متخوفاً .. وجلًا .. بصوت مرتعش .. وكلمات متقطعة .. فتعزو العزم والشجاعة .. إلى الأول .. والوهن والجبن إلى الثانى .. غير أنك لو رأيتهما .. وقد وعتهما الأيام إلى لقاء المصاعب .. أو الاستشهاد فى سبيل مبدأ .. لعلمت أن الوقاحة المبهرجة ليست ببسالة .. والخجل الصامت .. ليس بجبانة ..؟

وقد تنظر من نافذة منزلك .. فترى بين عابرى الطريق .. راهبة تسير يمينًا .. ومومسًا تسير شمالًا .. فتقول على الفور :

(ما أنبل هذه .. وما أقبح تلك .. ولكنك لو أغمضت عينيك .. وأصغيت هنيهة لسمعت صوتاً هامسًا فى الأثير .. قائلا :

(هذه تنشدنى بالصلاة .. وتلك ترجونى بالألم .. وفى روح كل منهما .. مظلة لروحى ..) .

لا .. لا .. ليست الحياة بسطوحها .. بل بخفاياها .. ولا المرئيات بقشورها .. بل بلبابها .. ولا الناس بوجوههم .. بل .. بقلوبهم ..

ولا تدعنى محبًا .. حتى يتجلى لك حبى .. بكل ما فيه من النور والنار .. ولا تعدنى خليا .. حتى تلمس جراحى الدامية» .

★ ★ ★

يا قلب إن قالوا ..
أين الذى تهوى ..
قل : قد سبت غيرى ..
ثم .. ادّع السلوى ..
بالله يا قلبى .. استر جواك ..
فما الذى يضنيك .. إلا دواك .. فاعلم ..

★ ★ ★

الحب فى الأرواح ..
كخمرة فى الكأس ..
ما بان منها ماء ..
وما خفى أنفاس ..
بالله يا قلبى .. احبس عناك ..
إن ضجت الأبحار .. أو هدّت الأفلاك .. تسلم ..

★ ★ ★

وفى الوحدة والانفراد .. ماله يتيه فيها ..
« الحياة جزيرة فى بحر من الوحدة والانفراد .. الحياة جزيرة .. صخورها الأمانى .. وأشجارها الأحـــلام .. وأزهارها الوحشة .. وينابيعها التعطش .. وهى فى وسط بحر من الوحدة والانفراد .. » .

★ ★ ★

وظهرت ريشة الفنان (جبران) فى رسومه للشخصيات التى قدمها .. فكانت معبرة ناطقة .. وكان رسمه .. (الجائعة

المستعطية) .. التى يعنيها .. وهى الأرض .. مثال يفوق الخيال .. يقول فيها :
ما أكرمك أيتها الأرض ..
وما أطول أناتك .. ما أشد حنانك على أبنائك المنصرفين عن حقيقتهم إلى أوهامهم .. الضائعين بين ما بلغوا إليه .. وما قصدوا عنه ..
نحن نضج .. وأنت تضحكين ..
نحن نذهب .. وأنت تكونين ..
نحن نجدف .. وأنت تباركين ..
نحن ننجس .. وأنت تقدسين ..
نحن نهجع ولا نحلم .. وأنت تحلمين ..
فى سهرك السرمدى ..
أطفلة أنت فى حضن الفضاء ..؟
أم عجوز ترقب الأيام والليالى ..
وقد شبعت من حكمة الأيام والليالى ..
ما أنت أيتها الأرض .. ومن أنت ..
أنت أنا .. أيتها الأرض .. أنت بصرى وبصيرتى .. أنت عاقلتى وخيالى وأحلامى ..
أنت جوعى وعطشى .. وسرورى ..
أنت غفلتى وانتباهى ..
أنت الجمال فى عينى : والشوق فى قلبى .. والخلود فى روحى ..
أنت أنا أيتها الأرض .. فلو لم أكن .. لما كنت ..

★ ★ ★

وفى أدبه .. يتلاعب بالقلم نثراً وشعراً .. إنه .. فن .. وخلود ..

ففى روايته (الأجنحة المتكسرة) يتكلم عن المرأة التى أحبها وهو فى الثامنة عشرة من عمره .. وينساب قلم الشاعر ليقول :

«(كنت فى الثامنة عشرة من عمرى .. عندما فتح الحب عينى .. بأشعته السحرية .. ولمس نفسى لأول مرة .. بأصابعه النارية ..!

وكانت سلمى كرامة .. المرأة الأولى .. التى أيقظت روحى بمحاسنها .. ومشت أمامى إلى جنة العواطف العلوية .. حيث تمر الأيام كالأحلام .. وتنقضى الليالى كالأعراس .. ».

وفى لحظات الوداع .. يقول :

«وقفنا للوداع .. وقد وقف بيننا الحب .. واليأس .. شبحين هائلين .. هذا باسط جناحيه فوق رأسينا .. وذاك قابض بأظفاره على عنقينا .. هذا يبكى مرتاعاً .. وذاك يضحك ساخراً .. ولما أخذت يد سلمى .. ووضعتها على شفتى متبركاً .. دنت منى .. ولثمت فوق شعرى .. ثم عادت فارتمت على المقعد الخشبى .. وأطبقت أجفانها .. وهمست ببطء :

أشفق يارب .. وشدد جميع الأجنحة المتكسرة .. »

★ ★ ★

والأمومة المشتاقة .. فى كل سطر من أسطر كتابات (جبران) .. فهو يقول فى (الأجنحة المتكسرة) .. أن سلمى

صرخت .. وهى تنظر إلى رسم أمها : يا أماه .. يا أماه .. يا أماه .. أن أعذب ما تحدثه الشفاه البشرية .. هو لفظة (الأم) .. وأجمل مناداة هى : يا أمى .. كلمة صغيرة مملوءة بالأمل والحب .. والانعطاف .. وكل ما فى القلب البشرى من الرقة والحلاوة .. والعذوبة .. الأم هى كل شىء فى هذه الحياة .. هى التعزية فى الحزن .. والرجاء فى اليأس .. والقوة فى الضعف .. هى ينبوع الحنو والرأفة .. والشفقة .. والغفران .. فالذى يفقد أمه .. يفقد صدراً يسند إليه رأسه .. ويداً تباركه .. وعيناً تحرسه .. كل شىء فى الطبيعة يرمز ويتكلم عن الأمومة ..

★ ★ ★

ويستمر (جبران) .. ويفيض قلمه إسهاباً .. يعبر عن مشاعره هو .. لفقد أمه .. التى كانت تمثل له كل الحب .. وكل الحنان .. وكانت تمثل له الحياة كلها .. وهذا يتضح حين يعبر على لسان سلمى .. ويفسر بقوله :

«إن لفظة الأم .. تختبئ فى قلوبنا .. مثلما تختبئ النواة فى قلب الأرض .. وتنبثق من شفاهنا فى ساعات الحزن والفرح .. كما يتصاعد العطر من قلب الوردة فى الفضاء الصافى .. والممطر .. ».

★ ★ ★

و(جبران) .. يسمو بمشاعره سموا فائقا .. فحين كان يجتمع بسلمى كرامة فى روايته .. بعيداً عن أعين الرقباء فى الهيكل المقدس .. كانت تظهر روحه الشفافة .. وحبه العذرى .. فى هذه اللقاءات .. حين يشرحها .. ليقول :

«إن السجين المظلوم الذى يستطيع أن يهدم جدران سجنه ولا يفعل .. يكون جباناً .. و (سلمى كرامة) كانت سجينة مظلومة .. ولم تستطع الانعتاق .. فهل تلام لأنها كانت تنظر من وراء نافذة السجن إلى الحقول الخضراء والفضاء الواسع ؟.. هل يحسبها الناس كائنة لأنها كانت تجيء من منزل منصور بك غالب (زوجها) لتجلس بجانبى بين عشتروت المقدسة .. والجبار المصلوب ..؟ ليقل الناس ما شاءوا . فسلمى قد اجتازت المستنقعات التى تغمر أرواحهم .. وبلغت ذلك العالم الذى لا يبلغه عواء الذئاب .. وفحيح الأفاعى ..

إن سلمى .. كانت تشير بيدها إلى الرسمين المحفورين على جدران الهيكل فى قلب الصخرة .. لقد نقشت الأجيال رمزين يظهران خلاصة ميول المرأة .. ويستجلبان غوامض نفسها المرواحة .. بين الحب .. والحزن .. بين الانعطاف والتضحية .. بين عشتروت الجالسة على العرش .. ومريم الواقفة أمام الصليب .. وتقول :

«أن الرجل يشترى المجد والعظمة والشهرة .. ولكن المرأة .. هى التى تدفع الثمن ..».

أنت تعلم .. بأننى أحبك محبة الأم لوحيدها .. وهى المحبة التى علمتنى أن أحميك .. حتى من نفسى .. هى المحبة المطهرة بالنار .. إن المحبة المحدودة تطلب امتلاك المحبوب .. أما المحبة غير المتناهية .. فلا تطلب غير

ذاتها .. المحبة التى تجيء بين يقظة الشباب وغفلته .. تستكفى باللقاء .. وتقنع بالوصل .. وتنمو بالقبل .. والعناق .. أما المحبة التى تولد فى أحضان اللانهاية وتهبط مع أسرار الليل .. فلا تقنع بغير الأبدية .. ولا تستكفى .. بغير الخلود .. ولا تقف منتهية أمام شىء سوى (الألوهية) .

وكانت التضحية .. وكان الفراق ..

وبعد خمسة أعوام من زواج سلمى .. سمعت السماء نداءها .. لتصيرها أماً .. وتمحو ذلّها وعارها ..

وليس بين أفراح الحياة .. ما يضارع فرح المرأة العاقر .. عندما تهيئها النواميس الأزلية لتصيرها أماً .. كل ما فى يقظة الربيع من الجمال .. وكل ما فى مجيء الفجر من المسرة .. يجتمع بين أضلع المرأة .. التى حرمها الله .. ثم أعطاها ..

وولد الطفل مع الفجر .. ومات عند طلوع الشمس .. واحتضنت (سلمى) وليدها .. وغابت معه فى إغفاءة أبدية ..

وكفنت (سلمى) .. بأثواب عرسها البيضاء .. أما طفلها .. فكانت أكفانه .. ذراعى أمه .. وقبره .. صدرها الهادى ..

وحملوا الجثتين .. فى نعش واحد .. وارتمى العاشق على قبر (سلمى) يبكيها ..

★ ★ ★

فى الدراسات التى قدمت عن (جبران) .. وتحليل لشخصيته .. لم يجدوا أصلح من تعبير .. أو كلمة (متمرد) .. فهو رافض لكل أنواع الاستسلام .. وهو يعطى

الدليل الأوحد .. على نزعة الإنسان المتميز فى شخصيته .. وطموحه إلى بناء فكرى خاص .. يرمى إلى تثبيت الحرية الشخصيه .. ودعوة الناس إلى نشدان التحرر .. وإثباتًا لذلك .. نرى أنه حتى فى رغبته إلى الجنوح إلى هذا التمرد .. لم يجد إلا اسم (الأرواح المتمردة) تعبيراً عن ذاتيته المتمردة ..

و (جبران) فيلسوف .. ونفسه الرافضة المتمردة .. الثائرة .. والثورة عمل جميل .. لعذر أجمل .. وهذا ما يجب أن ننظر إليه من خلال .. (التمرد الجبرانى) ..

وهو إنسان .. طبع على المحبة والرأفة ..

ولكنه .. كإنسان ثائر .. اهتم بالتجرد من رواسب التسلط البينى على عقله .. واتخذ تمرده طابعًا خلقيًا .. فلم يبحث فى أية ناحية من نواحى الحياة الاجتماعية .. سياسية كانت أم شخصية .. أم دينية .. إلا من زاوية النظرة الحقوقية .. الخلقية .. وهى نفس نظرة الأدباء الفرنسيين (روسو .. ومونتسيكيو .. وفولتير) .. الذين استحقوا لقب .. فلاسفة الثورة الفرنسية .. لأنهم كانوا معبرين عن نداء أمتهم المكبوت .. إلى تأمين الحقوق الأساسية .. البديهية للإنسان .. تمامًا كما سيكون (جبران) .. و (الريحانى) .. ونعيمة .. معبرين عن تململ الرغبات الخفية لأمتهم فى الحصول على هذه الحقوق .

وقد استهدف (جبران) فى عملية الإيقاظ .. أمورًا أساسية .. هى التدين .. وحقوق المؤمن تجاه الكنيسة .. الحب وحرية الشخص فى ممارسة الطبقية .. وعدالة المساواة .

صراع الخير والشر .. والسير نحو الخير الفطرى تحقيقًا للكمال البشرى .. هذه المسائل .. هى الأمور التى كان ينظر إليها (جبران) متطلعًا فيه إلى المجتمع السعيد الذى يحيا فيه الإنسان المتفوق .

ففى كتابيه .. (عرائس المروج) .. و (الأرواح المتمردة) .. يعرض (جبران) مجموعة من القصص الاجتماعية التى استقاها من واقع الحياة اللبنانية .. فى أسسها .. الدينية .. والخلقية .. والسياسية .. فأدرج فيها مشاهد .. مأساوية تسمح للقارى .. بالتفرج من خلال التواء حياة الأشخاص .. على التواء مفجع فى هرم القيم الاجتماعية .. وشاء أن يظهر القروح .. التى يعانى منها الجسد الاجتماعى .. ويمكن اعتبار قصة (يوحنا المجنون) .. فى كتابه .. (عرائس المروج) أوضح الصور التى رسمها قلمه من واقع التدين فى مجتمعه ..

ويريد (جبران) أن يعبر أن فى هذه القصة عن التمرد المكبوت الذى لازم عواطف الناس .. ومنعه التخلف والخوف من الظهور .

وقصة (يوحنا المجنون) .. تعرض مشكلة قديمة تعود

إلى القرون الوسطى .. يوم كانت الكنيسة تفرض المبادئ الدينية باسم العصمة عن الخطأ .. كما كان الفقهاء المحافظون يمنعون العامة من حرية تأويل الشريعة الإسلامية .. فاضطهد الفلاسفة فى الغرب والشرق .. ونام المؤمنون متخدرين بعظات رؤسائهم إلى أن قام الإمام محمد عبده فى مصر .. يدعو إلى إحياء أسلوب (المعتزلة) فى التأويل العقلى للشريعة .. و (جبران) فى لبنان .. يدعو إلى إنزال التعاليم الدينية من تعاليها المصطنع .. وكسر احتكار الأقلية لها .

ويلمح (جبران) إلى بقاء هذا الإرث .. عبر (الصنمية الإيمانية) فى مجتمعه .. فيقول : فى (مرتا البانية) وهى من مجموعة (عرائس المروج) : أن الكاهن رفض الصلاة عن نفس مرتا الخاطئة وأوعز بعدم مواراة جثتها فى مقابر المؤمنين .. كى لا تدنس مثواهم بآثامها .

والصنمية هذه التى يعنيها (جبران) فى .. (مرتا البانية) تتعدى رفض التقيد بالمظاهر الحسية .. إلى رفض تنصيب الإنسان نفسه ديّانًا للإنسان .. محل الله .. الذى كانت الغاية الجوهرية من مجيئه خلاص الخطاة .. وحصر إدانتهم بالخالق .

وناحية أخرى تحليلية .. فى جانب من جوانب شخصية (جبران) .. هى (معاناته فى الحب) والمعاناة الكبرى التى شكلت المنطلق الرئيسى لاهتمامه بالمرأة .. وبمبادئ الحب

والزواج .. فهى تلك التجربة المريرة .. لأمه الفاضلة مع أبيه الفظ .. والسيئ الأخلاق .. فقد كان يعيش فى جو من المهاترات الزوجية الدائمة .. بين قساوة أب ردىء الطباع .. وحنان أم حكيمة .. مما ولّد لدى (جبران) الفتى .. نزعة النفور من أبيه .. وحب الانصياع لوصايا أمه .

وتغلغل (الطيف الأنثوى) فى قاع لاوعية كالهاجس المضنى .. وأصبح هوس البحث عن طيف أمه فى ريشته .. وفى كتاباته .

ونعتبر .. (الأجنحة المنكسرة) هى الرواية التى تعبر بالفعل عن آراء (جبران) فى الحب .. والزواج .. وهى تعرض تجربته الشخصية .. فى حبه الأول .. الفاشل .

ونرى بعد ذلك .. فى كتابه (الأوراح المتمردة) مدى ثورته .. وتمرده على الأهل .. الذين يجبرون بناتهم على الزواج .. ممن لا يحببن .. وجعل (وردة الهانى) فى قصته .. تفضح أسرار .. خصائص حياتها الزوجية .. وهى الفتاه التى أجبرها أهلها على الزواج من رجل مسنّ .. ثرى .. بالرغم من أنها لا تحبه .

وهو بذلك .. يقصد أن يدعو دعوة صريحة .. للمرأة أن تكسر الطوق العائلى .. متحدية .. سوء السمعة .. إيثارًا للعيش بحرارة الحب .. على العيش بصقيع الحرمان .. وهو تطرف قد يجعل منه داعيًا إلى الانفلات الغريزى ..

(الغرائزى) .. والتحرر من كل ضابط أو مقياس اجتماعى .

فالسيدة (وردة) .. لم تختر زوجها الأول .. بملء إرادتها .. وكل ماكان يريده (جبران) .. هو أن يوضح .. «أنه عندما تستتب حرية الاختيار لدى المرأة .. يصبح تحملها مسئولية عبثها .. بالحياة الزوجية .. والمهم .. هو المنطلق .. أى أن تتحرر الأذهان من ميول استعباد الناس .. لبعضهم البعض .. »، وهذا هو ما أراد (جبران) أن ينشره حول المرأة والحب :

أن يكون للفتاة حق تقرير مصير حياتها بالاختيار الحر .. ـ أسوة بالرجل ـ وأن لا يسحق الأهل .. إرادة الفتاة .. ويقررون باسمها ما هى مدعوة لأن تعيش مدى عمرها .

«هؤلاء البشر .. الذين يجيئون من الأبدية ويعودون إليها قبل أن يذوقوا طعم الحياة الحقيقية لا يمكنهم أن يدركوا كنه أوجاع المرأة .. عندما تقف نفسها .. بين رجل تحبه .. بإرادة السماء .. ورجل تلتصق به بشريعة الأرض .. هى مأساة أليمة .. مكتوبة بدماء الأنثى .. ودموعها .. يقرأها الرجل ضاحكًا .. لأنه لا يفهمها» .

ويقول جبران :

«عرفت أن سعادة المرأة ليست بمجد الرجل وسؤدده .. ولا بكرمه وحلمه .. بل بالحب الذى يضم روحها إلى روحه .. ويسكب عواطفها فى كبده .. ويجعلها ويجعله عضوًا واحدًا من جسم الحياة .. وكلمة واحدة على شفتى الله» .

و (جبران) يؤمن بالروحانية فى الحب .. فلقد صرح مرارًا بتمرده على اللعبة الجسدية فى الحب .. وتعلقه به تعلقًا روحيًا مغذيًا للخيال البشرى .

وبقيت المرأة فى وجدان (جبران) .. الكائن الجميل الذى يعبر عن السعادة الحقة .. والحرية .

كما أن فكره فى حياته الفكرية الأولى .. الذى عبر به عن معتقداته فى كتبه (عرائس المروج) .. (الأرواح المتمردة) و (الأجنحة المتكسرة) .. و (دمعة وابتسامة) .. تتضمن دائمًا .. وبأشكال مختلفة .. ذكرًا للأنثى .. الأنثى الحبيبة .. أو الحورية .. أو الأم .. أو الفتاة المظلومة .. أو الصبية التى ترشد بالمواعظ .. فصار الكون عنده .. كلمة حلوة على شفتين حلوتين .

وفى رسم رسمه (جبران) .. لوجه امرأة حزينة يقول عنه :

«وجه أمى .. وجه أمتى» .

وهو يعبر فيه عن تمرده القومى الذى يتفجر عبر طيف أمه الحزينة .

دائمًا .. (الطيف الأنثوى) يراود خياله .. وريشته .. وقلمه .. وروحه .. أنه انطباع أزلى .. انطباع أثر المرأة فى كيان (جبران) .

★ ★ ★

والألم عند (جبران) .. هو الذى يفجر الإدراك .. ويقود الإنسان إلى الفهم .. ومن خلال آلام (جبران) وأحزانه .. وصراعه مع نفسه .. ومع العالم .. نتبين أمرين أساسيين :

- نفوره من واقعه ..

- وهوسه بالعظمة ..

خروجًا من هذا الواقع .. وتعاليًا عليه .. وهذان - النفور والعظمة - أى نفور الكائن من أرضه :

«أنا أكرهكم يا بنى أمى .. لأنكم تكرهون المجد والعظمة» ..

كما أن نزوعه إلى مثالية تتخطى كل منظور الأرض .. والنزعة إلى الخلود .. شكلت عند (جبران) هاجسًا لاحقه فى كل ما كتب .

وما دعاه إلى نشدان الخلود .. هو كما قيل من تحليل لشخصيته .. (نارسيسيته) .. وعقدته الأوديبية العميقة الغور فى نفسه .. فصورة أمه .. التى تغذى قاع خياله .. وتعيش فى سراديب لاوعية .. تخيط له فى الوقت ذاته .. قماشة نزعته إلى الخلود .. فيرغب فيه .. لأنه يهبه الأمل الباطنى فى إمكانية اللقاء بأمه الضائعة .. كأنما بقاؤه الأبدى .. هو دعوة لدوام تلذذه العاطفى بتلمس الحنان الأمومى .. وكأنما العودة التقمصية إلى هذه الحياة .. ارتداد إلى عهد الطفولة .. أو ارتداد إلى الرحم الذى أنجبه .. فهو

كثيرًا ما يردد «العودة إلى الحياة» .. ذاكرًا الأم .. أو المرأة الثانية التى ستلده .

«قليلًا ولا ترونني .. وقليلًا وترونني» .. لأن امرأة أخرى ستلدنى .

ويقول فى (حديقة النبى) .. مكلمًا الغمامة :

«وسنبحر معًا .. إلى أن يأتى يوم الحياة الثانية .. عندما يلقيك الفجر .. قطرات ندى فى حديقة .. ويقذف بى طفلًا فى حضن امرأة» .

مما يؤكد .. سطوة الدوافع السيكولوجية فى توجيه أفكار (جبران) الفلسفية .. خاصة هذه النزعة إلى الأبدية .. والرغبة فى الخلود .

والتقمص يستجيب لرغبته هذه .. كما يستجيب لنارسيسيته .. ولجنون العظمة عنده ..

ولنزعة الارتداد .. مجددًا .. إلى الرحم الأمومى .. فضلًا عن كونه أملًا جديدًا له فى الرجوع إلى الحياة لاستعادة حقوقه الضائعة .. تلك التى لا تزال حية فى لاوعيه .. عبر عقدتى التدنى .. والبراءة الجريحة .

ويكرر (جبران) .. بتعابير .. وصور شتى .. إصراره على الولادات الأخرى .. والعودة الثانية .. التى يتخلص فيها الإنسان من أدرانه .. ليبلغ فى النهاية .. «ذاته الكبرى» .

وهذا ما عبر عنه فى قصته (رماد الأجيال والنار) من كتابه (عرائس المروج) .. فيحكى فيها .. قصة إنسان .. يدعى (ناثان بن إجرام) كاهن هياكل بعلبك .. الذى أحب فى خريف عام ١١٦ قبل الميلاد .. «فتاة» ما لبثت أن ماتت .. لتتركه وحيدًا .. حزينًا .. هائمًا على وجهه فى الأودية .

ولكن .. :

«الأجيال التى تمر وتسحق أعمال الإنسان .. لا تفنى أحلامه .. ولا تضعف عواطفه .. فالأحلام .. والعواطف تبقى بقاء الروح الكلى الخالد» .

وهكذا فى ربيع سنة ١٨٩٠ بعد الميلاد .. كان الراعى (على الحسينى) يقود خرافه داخل هياكل بعلبك .. فالتقى فجأة بفتاة جميلة .. كانت تملأ جرتها ماء .. وهذه الفتاة لم تكن سوى الحبيبة التى غابت قرونًا .. وهذا الراعى لم يكن سوى حبيبها .. الذى عاد إلى هذه الحياة من جديد .. فاجتمع الحبيبان .. شاكرين لعشتروت عملها .. لأنها جمعتهما بعد فراق طويل ..

وهذه القصة تبين .. كيف أن الارتداد التقمصى إلى الحياة .. يمكن للإنسان من تحقيق غاياته الشريفة .. فما يعجز عنه .. فى مرحلة حياتية واحدة .. يتمكن منه فى مراحل عدة .. فيخطو حثيثا نحو تكامله .

★ ★ ★

والمرأة الضعيفة عند (جبران) .. هى رمز الأمومة .. رمز الأمة المظلومة .. وفى رسمه وجه امرأة .. معنونًا إياه .. (وجه أمى .. وجه أمتى) .. دليل صارخ على تجمع كافة خلفياته العاطفية .. الجنسية .. فى شخص أمه .. وعلى كون .. أنثى وطنه .. صورة لأمته المظلومة .. ومهيأة لأن تبنى مستقبل هذه الأمة .. كما قدر لأمته أن تبنى مستقبله الفكرى ..

«أليست المرأة الضعيفة .. هى رمز الأمة المظلومة؟» .

« إن المرأة من الأمة بمنزلة الشعاع من السراج » .

كما يقول جبران فى (الأجنحة المتكسرة) .

لقد دافع الكثيرون من الأدباء عن المرأة .. ولكن أحدًا منهم لم يدافع فى أواخر القرن التاسع عشر وأوائل هذا القرن .. كما فعل (جبران) .. دفاعًا عن وجه أمته .. عبر وجه أمه .

★ ★ ★

مىّ وجبران

لمحات .. وظلال

كانت (مىّ) .. عظيمة فى خلقها .. عظيمة فى التمسك بقيمها .. ومثلها .. ومهما طغت العاطفة .. فإنها كانت دائمًا .. ودائمًا .. تحكم عقلها .. وتنتصر لمبادئها .. ودينها .

لقد أحبت (مىّ) - (جبران) .. كل الحب .. ولكنها .. ومع كل هذا الحب .. كانت تعترض عليه بعض أفكاره الهدامة .. من واقع كتاباته المتمردة .

إنها كانت تؤمن بالحب .. كل الإيمان .. ولكن هو الحب الطاهر العفيف الذى يقوم على الأسس الدينية .. والطهارة والشرف .

ففى رواية (جبران) - (الأجنحة المتكسرة) .. لم تقتنع (مىّ) بما جاء فيها .. من آراء تنافى الدين .. والقيم .. والمثل .. هذه الرواية التى اعتبرها الباحثون أكثر ما عبر به عن نفسه فى الحب والزواج .. إنه لا يمانع فى أن تقابل المرأة المتزوجة حبيبها .. ما دامت هذه اللقاءات لا تتعدى الشرف .. و (مىّ) .. فى ذلك .. تأنف .. وتتأبى .. وتتأذى من هذه الآراء .. وحين أرسل إليها هذا المؤلف .. فى أواخر

أبريل سنة ١٩١٣ - وكان عمره فى ذلك الوقت حوالى ٢٩ عامًا .. وهى فى نحو الخامسة والعشرين .. وقرأته .. أرسلت إليه على الفور .. خطابًا .. كان أول خطاباتها إليه .. وهو خطاب صادق يعبر بالفعل عن روحها .. وعقيدتها فى الزواج :

«إننا لا نتفق فى موضوع الزواج يا (جبران) .. أنا أحترم أفكارك .. وأجل مبادئك .. لأننى أعرفك صادقًا فى تعزيزها .. مخلصًا فى الدفاع عنها .. وكلها ترمى إلى مقاصد شريفة .. وأشاركك أيضًا فى المبدأ الأساسى القائل بحرية المرأة .. فمثل الرجل .. يجب أن تكون المرأة .. مطلقة الحرية .. بانتخاب زوجها من بين الشبان .. متبعة فى ذلك ميولها .. وإلهاماتها الشخصية .. لا مكيفة حياتها فى القالب الذى اختاره لها الجيران والمعارف .. إنك تسمى هذه الشركة سلاسل ثقيلة .. وتقول : «لم لا تستطيع المرأة الاجتماع بحبيبها على غير علم من زوجها» .. وأنا أقول : لا يمكنها لأن باجتماعها هذا السرى .. مهما كان طاهرًا .. فإنها تخون زوجها .. وتخون الاسم الذى قبلته بملء إرادتها .. وتخون الحياة الاجتماعية التى هى عضو عامل فيها ..» .

«عند الزواج .. تعد المرأة بالأمانة .. والأمانة المعنوية .. تضاهى الأمانة الجسدية أهمية وشأنًا .. عند الزواج .. تتكفل المرأة بإسعاد زوجها .. وعندما تجتمع سرًا برجل آخر .. تعد مذنبة .. إزاء المجتمع والعائلة .. والواجب» .

كان هذا هو رأى (متى) فى آراء (جبران) .. فى الحب والزواج .. ولكن (جبران) كان له رأى آخر .. فهو يقول فى (حفار القبور) من كتابه (العواصف) :

«إن الزواج عبودية الإنسان لقوة الاستمرار .. فإن شئت أن تتحرر .. طلق امرأتك .. وعش خاليًا» ..

وفى قصته (وردة الهانى) من كتابه .. (الأرواح المتمردة) .. يؤكد (جبران) إيمانه بضرورة إرضاء المرأة لنداء الحب .. فإن (وردة) هى فتاة .. أجبرها ذووها على الزواج .. من رجل مسنّ ثرى .. بالرغم من أنها لا تحبه .. فأمضت معه زمنًا .. قاست فيه الكثير من مرارة الحرمان .. مما دفعها إلى الارتباط بعلاقة عاطفية مع رجل آخر .. فهجرت بيتها الزوجى .. لتعيش مع الرجل الذى أحبته .. وأحبها .. وجمعتها الظروف بـ (جبران) .. فقصت عليه حكايتها الطويلة .. مستفيضة فى تحليل مأساتها .. وإبداء أفكارها التحررية .. بالنسبة للحب والزواج .. والشريعة .. وهنا وصل (جبران) إلى ذروة (التمرد الجبرانى) .. من رفض لمبادئ الشرق .. ومقاييسه .

ومن هنا .. جاءت معاناته الكبرى .. التى شكلت المنطلق الرئيسى .. لاهتمامه بالمرأة .. وبمبادئ الحب والزواج .. وهى تجربته المريرة .. لأمه الفاضلة مع أبيه الفظ .. السيئ

الأخلاق .. لقد عاش (جبران) فى جو المهاترات الزوجية الدائمة .. بين قساوة أب ردىء الطباع .. وحنان أم حكيمة .. مما ولّد فى (جبران) الفتى .. نزعة النفور من أبيه .. وحب الانصياع .. لوصايا أمه .. وفى (جبران) الرجل .. هوس البحث عن طيف أمه .. فى ريشته .. فى كتاباته .. وفى صداقاته .. ويبدو أن الدافع الرئيسى لاهتمام (جبران) الأديب بالمرأة وحقوقها .. عائداً أصلًا .. إلى معاناته المبكرة .. من فقدان التآلف الروحى بين والديه .. ومن تغلغل الطيف الأنثوى فى قاع لاوعيه .. كالهاجس المضنى ..

وفى ريشة (جبران) الفنان .. رسومات من عبودية المعتقدات الموروثة .. فهناك رسم يصور «أنثى مصلوبة .. تتوق إلى التحرر» .. وصورة لعطاء الأمومة .. وحنانها .. مصوراً فى أمه التى تعيش فى لاوعيه .. صورة بريشته البارعة .. تصور شاعراً أعمى .. يفقد بصره .. فتهبه الأم .. بصيرته، «وهذا تماماً يأتينا فى النهاية بأن عقدته من حرمانه من أمه ..» .

أو .. عقدة أوديب قد شكلت محوراً .. بالغ الأهمية .. والتأثير .. فى تكون نفسيته .. بخلفيتها .. وطبعها .. وفلسفتها .. كما أن «عقدة البراءة الجريحة» فى (جبران) الطفل .. الناتجة عن فظاظة الأب .. وعدم أخذ ولده بالرفق والعدل .. مضافاً إلى وضاعته التعيسة الى أورثته إياها مكانة

أبيه الاجتماعية .. المتدنية .. قد استثارت فى نفسية الولد .. المفطور على رهافة الحس .. شعوراً بالنقمة المكبوتة .. على المجتمع .

لقد أثر عليه موت أمه إلى درجة أنه اعتبر (مارى هاسكل) أماً له .. وكان يردد على مسمعها دائماً .. بأنه طفل .. وبأنها أم .. لقد كان يجد فيها .. «طيف الأمومة المفقودة» .. لذلك رفض معاشرتها .. لأن صورتها .. لم تكن صورة الحبيبة .. بل صورة الأم .. وكانت هذه هى نظرته إلى كل أنثى .. وكان هو يصرح بأنه لم يُقِمْ علاقة جنسية حقيقية مع أية امرأة .. لأنه كان يرى فى المرأة .. الشىء الكثير من الأم ..

وهكذا .. عاش (جبران) .. المراهق الأبدى .. وجه أمه يبدو له فى كل طيف .. وكل خيال .. وتعبر ريشته عن آلام نفسه .. لنفسه .. ولوطنه ..! ففى رسم لوجه امرأة حزينة .. يقول : «وجه أمى .. هو وجه أمتى» ..

★ ★ ★

ومثلما فعل الدين بـ (ميّ) فعل بـ (جبران) .. كل على طريقة تفكيره .. ومبادئه .. فقصته مع (سلمى كرامة) أول عهده بالحب التى يسميها (فى الأجنحة المكسورة) ظلت حية فى خياله حتى أواخر حياته .. والناحية العاطفية مقرونة بكبت جنسى عائد إلى معاناته الأوديبية .. جعلت منه مراهقاً مهووساً

بخيال المرأة .. حتى بعد الأربعين .. وإذا حياته كلها .. تؤكد أن شخصية المرأة قد شكلت «عقدة هاجسية» فى قاع النفس الجبرانية .. وكل أقاصيصه .. خاصة فى المرحلة الأولى من حياته الفكرية .. عبر كتبه : (عرائس المروج)، (الأرواح المتمردة)، (الأجنحة المكسورة)، و (دمعة وابتسامة) .. تتضمن دائمًا .. وبأشكال مختلفة ذكراً للأنثى .. الأنثى الحبيبة .. أو الحورية .. أو الأم .. أو الفتاة المظلومة .. أو الصبية التى ترشد بالمواعظ .. وصار الكون كله عند (جبران) .. كلمة حلوة .. على شفتين حلوتين ..

ومن هنا .. جاء الارتباط بـ(ميّ) .. هذه الفتاة الشفافة .. الرقراقة .. الحانية اللمسات .. الرائقة المشاعر .. التى تعيش وتحيا بالحب .. والتى كتبت إلى (جبران) خطاباً وهى تشتعل صباً ووجداً .. بعد أن تآلفت روحاهما .. وبلغ غرامها به حداً .. أن كتبت إليه غراماً وهياماً فى نوفمبر ١٩٢٦ تقول :

«ما أحلى اللقاء بعد الفراق يا (جبران) ..! ما أحلاه على القرطاس .. خلال الألفاظ المتقطعة ..

تعال .. تعال يا (جبران) .. تعال .. وزرنا فى القاهرة .. فلماذة لا تأتى .. وأنت فتى هذه البلاد التى تناديك ..

تعال .. فأشعة القمر .. تثير الرمل حول أبى الهول .. وتمرح فى موج النيل ..

تعالى يا صديقى .. تعال .. فالحياة قصيرة .. وسهرة على النيل .. توازى عمراً حافلاً بالمجد والثروة .. والحب ..» .

★ ★ ★

لقد كان (جبران) حبيب (ميّ) .. فلقد نادته فى رسالة لها فى عام ١٩٢٥ :

«جبران .. يا صديقى الحلو الكريم ..» ..

حب دون لقاء .. عمراً بأكمله .. عاشته (ميّ) تنادى حبيبها المعشوق الفاتن .. (جبران) ..

★ ★ ★

وتعيش الحب .. بخيالها وروحها .. وقلمها .. ذلك الحب الذى تشعر به مع الحبيب .. ومن هو الحبيب ..؟

ففى ديوانها (أزاهير حلم) .. والذى وقعته باسم (إيزيس كوبيا) وهو الاسم الذى كانت توقع به نتاجها الفرنسى .. نجد قصيدة تلفت النظر للومضات التى توحى بشتى التجارب والذكريات العاطفية .. نقرأ لها فى قصيدة (دعونى) :

هنا يطيب لنا الحب ..

أجل .. يطيب لنا الحب .. بلين الأشجار المنعزلة والخرائب البائدة .. وما حملت من أخبار الزمان .

وفى قصيدة (ملل) :

شئت أن أخدع الملل .. فنهضت .. وأنشدت أناشيد حب .. فأحسست شفتى .. تفتر عن ضحكة أليمة .. ما عرفت مغزاها .

أتراها .. لمحات من الحب .

إنها تكتب إلى (إيزيس كوبيا) وهو نفس اسمها .. تعترف وتقول :

«لقد أطلقوا على النساء .. لقب الجنس الجميل .. وهذا خطأ .. فالنساء يؤلفن الجنس اللطيف .. أما الجمال .. فللرجال» .

أمر يدهشك .. ولكنه حقيقة .. أكثر الرجال .. جميل .. وقل الجمال فى النساء ..

«إنها بلا شك .. كانت تقصد حبيبها الجميل .. (جبران) .

نعم .. إنه (جبران) .. ولا رجل سوى (جبران) .

كتبت إليه تقول :

«أعرف أنك محبوبى .. وإنى أخاف الحب .. إنى أنتظر من الحب كثيرًا .. فأخاف أن لا يأتينى بكل ما أنتظر .. كيف أجسر على الإفضاء إليك بكل هذا .. الحمد لله .. أننى أكتبه على الورق .. ولا أتلفظ به» .

★ ★ ★

و (ميّ) .. كتبت إلى (جبران) .. بعد أن برح بها الحب .. وكانت تعتقد أنه معشوقها الأوحد .. وأنها هى وحدها .. حبيبته .. ولكنه .. كما سبق وقلنا .. أنه كان هناك .. بعيدًا .. بعيدًا .. غارقًا فى دنياه .. وهى .. تظن بأنها قد وجدت حبيبها .

لقد كان يريد أن تحبه كل النساء .. ويظل هو .. إلهًا معبودًا .. لتقول كل واحدة منهنّ :

«لقد كان حبيبى .. مع أنه لم يكن» .

لقد أحبته .. وهى تقترب من الأربعين .. وهو .. ما زال فى أحلام «طيفه الأنثوى» وألوهيته .. كان (جبران) يمثل لها كل شىء .. (الالتقاء بالرجل)، (الفنان الأديب)، (الحبيب المعشوق)، (القصيدة والوطن) .

هى .. كامرأة شرقية .. ما زالت تحلم بالبيت .. والطفل .. والرجل .

وهو فى هذا الطوفان .. المتمرد .. الهائم .. الفيلسوف الحالم .. الذى لا يستقر ..

إنه يقول لها :

«أنا ضباب يا (ميّ) .. ضباب يغمر الأشياء .. ولكن .. لا يتحد وإياها .. أنا دائما فى انتظار .. انتظار ما لا أعرفه» .

وهو .. لطبيعته المتمردة .. التى تحتقر الطقوس .. والقيود .. التى تعارفت عليها التقاليد والأديان .

مسكينة أنت يا (ميّ) .. لك دنياك .. وله .. دنياه .

لقد ظننت أنه يستطيع أن يقدم لها السعادة .. ولكنها كانت مخدوعة .. فلم تكن (ميّ) بقادرة على أن تفهم طبيعة الرجل الذى عاشت تحلم به .. ولم تفهم مدى ما جنت عليه الحضارة .. والأزمات .. كرجل .. وإنسان .

وكان (جبران) مريضًا .. ولم يكن من الممكن أن يكون زوجا .. فإنه مريض بنفس المرض الخبيث الذى مانت به أمه ..

وأخته .. ولعل هذا المرض .. منذ أن نشب فى صدره .. قد أعطاه هذا الاتجاه المتمرد الساخر .. من كل القيم .. ولقد كان يقول عن علته :

«إن العلة فى مكان أعمق من الأعصاب .. والعظام» .

وهنا .. يبدو التناقض والعجب .. فإن (جبران) كان قد عرض على (ميّ) الزواج فى إحدى رسائله .. وقد غزا الحب قلبها .. وأصبحت تشعر شعورًا عميقًا بأن (جبران) هو فتاها الوحيد .. بل الحبيب الأوحد .. فماذا منعها من الرحيل إليه ؟

كان الارتباط بالأبوين .. وهى ابنه وحيدة .. شيخان فى القاهرة .. يحبانها كل الحب .. ويحرصان على وجودها بينهما كل الحرص .. وصالون أدبى .. يلتقى فيه كل أدباء .. وشعراء .. وساسة مصر .. حول فاتنة الشرق .. وسيدة الصالون الأولى .. (ميّ) .. أو قل .. هى طبيعتها .. نفس الطبيعة التى تتوق للزواج ظاهريًا .. وترفضه حواسها .. ومشاعرها داخليًا .. وكان من الأحرى أن تقبل عرض الزواج هذا .. ليكمل حبهما .. وأننى أعتقد .. أنه حتى لو كانت (ميّ) قد قبلت الزواج .. من (جبران) .. فإنه هو .. كان سيتعلل ببعض العلل .. ولا يتم هذا الزواج .

إنه المدّ والجزر .. أو قل .. هو الرهبة من الزواج .. لأحلام رومانسية .. وخيالات بعيدة المنال .

وعلى هذا .. فقد كتبت إليه تقول :

« عزيزى (جبران) :

لما كنت أجلس للكتابة .. كنت أنسى من أنت .. وأين أنت .. وكثيرًا ما أنسى أن هناك شخصًا .. أن هناك رجلًا أخاطبه .. فأكلمك غالبًا .. كما أكلم نفسى .. وأحيانًا كأنك رفيقة فى المدرسة .. إنما كان يطفو على تلك الحالة المعنوية .. احترام خاص .. لا يوجد عادة بين فتاة وفتاة .. أهى المسافة .. وعدم التعارف الشخصى .. والبحار المنبسطة بيننا .. هى التى كانت تلبس حقيقة ذلك التراسل ثوب الخيال ؟.. قد يكون .. غير أن مكانتك فى اعتبارى وتقديرى .. كانت مصدر هذه الثقة .. التى ظهرت نشأتها .. كأنها فطرية .. بديهية .. لم تنتظر الوقت لتقوى .. ولا التجربة .. لتثبت» .

لقد أحبته (ميّ) بشعورها .. أحبت فيه أباها .. وفناها .. وأخاها .. ورفيقها .. وحبيبها .. وأخلصت إليه بروحها وقلبها .

وكتب إليها (جبران) .. يرد بها على رسالتها الرقيقة .. بقوله :

« عزيزتى (ميّ) :

فى عقيدتى .. أنه إذا كان لا بد من السيادة فى هذا العالم .. فالسيادة يجب أن تكون للمرأة .. لا للرجل .. أنا مدين للمرأة

بكل ما هو «أنا» .. للمرأة .. منذ أن كنت طفلًا حتى الساعة .. والمرأة تفتح النوافذ فى مصيرى .. والأبواب فى روحى .

ولولا المرأة الأم .. والمرأة الشقيقة .. والمرأة الصديقة .. لبقيت هاجعًا مع هؤلاء النائمين .. الذين يشوشون سكينة العالم .. بغطيطهم .

أنا بحاجة موجعة .. إلى من يأخذ منى .. ويخفف عنى .. أنا بحاجة إلى فصادة معنوية .. إلى يد .. تتناولنى مما ازدحم فى نفسى .. إلى ريح شديدة .. تسقط أثمارى وأوراقى» .

★ ★ ★

كلاهما .. فى حاجة إلى الآخر .. ولا يحاولان إرضاء هذه الحاجة .. بتعللات واهية فى الظاهر .. مرتبطة الجذور فى الداخل .. بطبيعة كل منهما .

طبيعة عشق الخيال .. عشق اللامجهول .. عشق المستحيل .. وإذا ما اقترب هذا المستحيل .. حاولا البعد عنه .

يناديها .. وتناديه .. ويقول لها :

«حبذا لو كنت مريضًا فى مصر .. حبذا لو كنت مريضًا بدون نظام فى بلادى .. قريبًا من الذين أحبهم .

أتعلمين يا (ميّ) .. أنى فى كل صباح .. ومساء .. أرى ذاتى .. فى منزل فى ضواحى القاهرة .. وأراك جالسة أمامى .. تقرئين آخر مقالة كتبتها .. أو آخر مقالة من مقالاتك لم تنشر بعد ؟» .

وتبدو طبيعة (جبران) واضحة .. حين يكتب إلى (مىّ) .. يقول :

«لقد عرفت أن الرجل المستوحد .. الشغوف بالعمل .. يستطيع أن يكون أبًا .. وأمًا .. وأخًا .. ورفيقًا .. وصديقًا» .

وكان قد تبنى طفلة صغيرة .. من أقاربه .

ولقد وجد (جبران) فى المرض .. لذة نفسية .. وتمنى أن يكون مريضًا فى مصر .. وفى جوار (مىّ) .. التى اصطفاها من دون النساء جميعًا .. وآثرها بالحب .

كان حلم (جبران) الأوحد .. أن يرى (مىّ) رأى العين .. ويحظى بقربها .

وكانت (مىّ) .. تلوح له بالحب .. ولكن سرعان ما ترجع إلى نفسها .. كفتاة شرقية .. تعودت الحياء .. والانطواء .. والخوف من التصريح بعواطفها .

وتقول له :

«كيف أجسر على الإفضاء بهذا إليك .. لو كنت الآن .. حاضرًا بالجسد .. لهربت أنا خجلًا بعد هذا الكلام» .

وكانت قد صرحت له بالحب .. وقالت له .. بأنه محبوبها .

وتستمر :

«غابت الشمس وراء الأفق .. ومن خلال السحب العجيبة .. والأشكال والألوان .. هناك نجمة واحدة .. هى

الزهرة .. إلهة الحب .. هل يا ترى هى مثلى .. لها واحد (جبران) .. حلو .. حلو .. بعيد .. بعيد .. هو القريب .. القريب» .

وتقول له أيضًا :

«اكتب لى .. لا تحرمنى من حنانك» .

★ ★ ★

كانت كتابات (مىّ) .. توحى بطابع الحزن .. والألم .. والتشاؤم .. كانت تكتب بنفس حزينة .. موجوعة .. كانت تحلم بحبيبها الذى يهدى روحها .. وتشعر فى قربة .. بسكينة النفس وراحتها .

قالت تناجى حبيبها .. فى وحدتها المريرة .. بعد موت والديها :

«سأدعوك أبى وأمى .. وسأدعوك قومى وعشيرتى .. وسأدعوك أخى وصديقى .. أنا التى لا أخ لها .. ولا صديق .. وسأطلعك على ضعفى واحتياجى .. إلى المعونة .. أنا التى تتخيل فيك قوة الأبطال .. ومناعة الضاديد .

سأستعيد ذكرك فى خلوتى .. لأسمع منك .. حكاية همومك .. وأطماعك .. وآمالك .. حكاية البشر المتجمعة فى فرد واحد .. وسأستمع إلى جميع الأصوات علّى أعثر فيها على لهجة صوتك .. وأشرح جميع الأفكار .. وأمتدح المصائب من الآراء .. ليتعاظم تقديرى لآرائك وأفكارك ..

وسأبتسم فى المرآة .. ابتسامتك فى حضورك .. سأتحول عن نفسى .. لأفكر فيك .. وفى غيابك سأتحول عن الآخرين .. لأفكر فيك » .

ولم تتزوج (ميّ) .. أحدًا من كل الذين كانوا يحبونها فى صالونها المتحرر .. لأنهم فى أعماق نفوسهم .. «الروح الشرقية» .. التى تنطوى على الرجعية .. العقلية القائمة على التقاليد .. فلم يرغب أحد منهم أن تصبح (ميّ) زوجة له .. حتى (جبران) .. الذى كان يمكن أن يفهم هذا المعنى من رسائله إليها .

لقد كتمت (ميّ) مشاعرها .. وعواطفها عن كل الناس .. وعانت الألم .. وصورته بأقسى ما يمكن أن يصوره الألم .. فى أيامها الأخيرة .. قبل المرض .. كتبت :

« أشتاق إلى الموت فى هذه الأيام .. لقد انتشرت فى نفسى فكرة الموت .. مع لذة الشعور بها .. انتشار الألحان .. مع الأرغن العازف » .

★ ★ ★

إن الصراع .. بين التقاليد والعرف .. والعاطفة .. كان قويًا لدى (ميّ) .. إنها كانت تشتهى أن تجد واحدًا تدعوه أباها وأمها .. وأحبت (جبران) .. وحين مات (جبران) .. ماتت الدنيا كلها :

« إننى أتعذب أشد العذاب .. إننى لم أتألم أبدًا فى حياتى كما أتألم اليوم .. هناك أمرًا .. يمزق أحشائى .. ويميتنى ..

فى كل يوم .. بل فى كل دقيقة .. لقد تراكمت علىّ المصائب فى السنوات الأخيرة .. وانقضت على وحدتى الرهيبة .. التى هى معنوية .. أكثر منها جسدية .. فجعلتنى أتساءل .. ؟ كيف يمكن لعقلى أن يتحمل عذابًا كهذا ؟» .

وكتبت (ميّ) تحت صورة جبران :

« هذا سبب علتى .. منذ زمن طويل » .

★ ★ ★

وكانت (ميّ) قد بدأت تدخل مرحلة مظلمة عندما تصدعت علاقاتها الأسرية بوفاة أبيها وأمها .. وكان (جبران) قد أرسل إليها يخبرها فيه بأنه عائد إليها .. ولكن .. أى عود للمريض الذى يعيش الحياة .. لحظة بلحظة .. وقد غلبه المرض الخبيث .

وكانت تعيش وتحيا بكلماته لها :

« أتعلمين يا (ميّ) .. أننى كل صباح ومساء .. أرى ذاتى فى منزل فى ضواحى القاهرة .. وأراك جالسة .. أمامى ؟» .

وجاء عام ١٩٣١ .. ليضع أمام (ميّ) .. المأساة كلها .. بوفاة (جبران) .

كانت هذه هى نقطة التحول المرير .. فى حياتها .. وكانت قد بلغت الخامسة والأربعين .. وهو سن مفزع للمرأة .. التى لا تجد أحدًا حولها .

وبدأ شبح الوحدة المعنوية .. وكان حزنها على وفاة (جبران) .. عميقًا .. ممضًا مفزعًا .. مؤلمًا .

وكانت تناديه فى وحدتها :

«لماذا لم يأت .. لقد أحببته .. وأخلصت إليه» .

وكانت طبيعتها الحساسة .. هى مصدر كل هذه الآلام .

وعزمت على الانتحار .. أخذت حبوبًا .. وفكرت فى إلقاء نفسها من النافذة .

وبدأ اضطهاد ذوى قرباها .. ومطالبتها بالمال .

والتقت هذه العواطف .. والمخاوف .. تتصارع فى نفس رقيقة .. لفتاة شاعرة .. ذات مزاج حساس .. وحيدة .. وفى سن حرج .

كل هذا .. دفع بها فى عنف إلى المأساة .. وعامين فى مستشفى العصفورية .. وعامين فى بيروت .. فى عذاب وآلام .

« إننى أريد أن أنسى .. أنسى كل ذاتى .. اللفائف التى أدخنها .. أنا التى لا عهد لى بذلك .

أدخنها .. ليضعف قلبى .. هذا القلب السليم الذى لا يزال يقاوم» .

★ ★ ★

لقد رآها « منصور فهمى » فى هذه الفترة .. ووصفها : «بأنها كانت نقشاء الشعر .. مشعثة الرأس .. شاحبة الوجه .. مقرحة العينين .. يلف جسمها المترهل .. جلباب أبيض فضفاض .. وتلابسه .. أشعة صفراء .. من ضوء خافت .. يرسله مصباح كهربائى صغير .. يتدلى فى سقف الدهليز» .

هذه هى (ميّ) فى النهاية .. وهذا ما فعله بها الحب .. والموت .. والجحود .. وظلم الناس .. وخيال حبيب .. ولّى .. وراح .

حبيب كانت ترنو إليه فى مرسمه .. وراء البحار .. معشوق .. ومحبوب .. اسمه (جبران) .

★ ★ ★

(ميّ) .. (ميّ) ..؟ ومن هى (ميّ) ...؟

هى كيان .. ممزوج من وجد وشوق .. وذهول .. وجوع فكرى .. لا يكتفى .. وعطش روحى لا يرتوى .. مع استعداد كبير .. للطرب والسرور .. واستعداد أكبر للشجن والألم .. ويغلب الشجن والألم .. على الفرح .. والسرور ..

فنانة .. رقيقة اللمحات .. واللمسات ..

فنانة .. موسيقية .. بارعة ..

★ ★ ★

يقولون إن (ميّ) .. لم تكن جميلة .. بل كانت وسيمة جذابة .. وقد قالت عنها (هدى شعراوى) وهى تصف جمالها :

«لم تكن (ميّ) على وسامتها .. ووضاحة وجهها .. جميلة بالمعنى الصحيح للجمال .. ولكن نفسها كانت أجمل من وجهها .. وروحها أجمل من صورتها» ، فكانت بين الجميلات لا تبدو أقل منهن فتنة .. ولا أضأل نصيبًا من الجاذبية .. ولقد كان يجمل (ميّ) .. شىء خفى .. وسر غريب .. بين لون بشرتها .. والتماع عينيها .. شىء يفتن الأنظار ، لقد

كانت كل حاسة من حواسها .. أو جارحة من جوارحها .. تنم على الذكاء .. حارة التعبير .. لطيفة الإشارة .. حسنة الحديث .. كلها لطف ودعة ورقة .. تحترم أبويها .. وتحترم أصدقائها .. جذابة .. فاتنة .. وشخصية قوية مؤثرة تمامًا .. تترك انطباعًا لا يمحى فى نفس كل من يقابلها .. إنها كما وصفوها .. (الأنوثة الجذابة) .

★ ★ ★

وقد وصفها الدكتور (منصور فهمى) .. فى محاضراته عنها .. بمعهد الدراسات العبرية .. سنة ١٩٥٤ بقوله :

« هى فتاة ربعة .. بضة .. ووجهها الصبوح أقرب إلى الاستدارة .. وبشرتها بيضاء من غير سوء .. وتقاسيمها مشرقة .. وعيناها دعجاوان .. واسعتان .. سبلاوان .. يشع فيهما بريق الذكاء .. ويعلوهما حاجبان يمتد كلاهما عريضًا أسود .. من أول العين إلى آخرها .. فى تقوس منسجم .. دون أن يقتربا .. أو يتقاربا .. من أعلى أنف .. أزلف جميل .. وفمها يزدان بشفتين رقيقتين .. قرمزيتين .. لا يمتدان فى خديها الربانيين .. إلا بما يتجاوز قليلًا نهاية الأنف .. وهى ذات جيد ملىء .. لا يعيبه قصر .. وقد يزينه عقد قانى الحمرة .. إن لبست ثيابًا .. قاتمة اللون .. وأسنانها بيضاء فيها فلج .. وفى الغالب .. لا تفارق الابتسامة محياها .. وشعرها أسود فاحم .. لامع .. وقد تقترن أحاديثها بحركات ناعمة متواصلة عند رأسها .. وجيدها .. فتبدو هذه الحركات

الخفيفة .. كأنها نبرات من الضحك الهادى ينسجم مع البسمات المتواصلة الرشيقة .. تزيدها طرفًا وتكسبها لعوبية وسحرًا » .

★ ★ ★

وأول كتاب صدر لـ (مارى زيادة) .. هو .. (أزاهير حلم) .. ونشرته باسم (إيزيس كوبيا) .. سنة ١٩١١ ـ بعد أن وصلت إلى مصر مع أبويها .. وقد كتبته بالفرنسية .. ويبدو أنها تهيبت مواجهة المجتمع باسمها الحقيقى .. أو ربما أرادت أن تستبين وقع الكتاب .. أو خوفًا من أن لا يشجع أحدًا كتابتها باللغة الفرنسية .. فهى لم تكن قد أجادت اللغة العربية .. ولكنها .. عندما التصقت بالمجتمعات فى ذلك الحين .. ولمست مدى تفاهة المرأة العربية .. وعدم تمثيلها للصورة الجميلة التى يجب أن تكون عليها .. ثارت ثورة عارمة .. على نفسها .. وعلى قلمها .. وركزت دراساتها وإجادتها للغة العربية .. ورأت فى نفسها رسولًا من واجبه نشر الهداية الثقافية للنساء .. العربيات .. وسارت فى دعوتها .. وغيرت اسمها .. من (مارى زيادة) .. إلى (ميّ) ليكون أوقع .. وأخف فى السمع .. وبدأت كتاباتها .. فى سبيل نهضة نسائية جديدة ..

كانت خلجات نفسها .. وأنين مشاعرها .. حانيًا للطبيعة .. رقيقًا كنسمات الحياة .. وكان حبها لها .. يفوق كل وصف .. ويفوق كل حب .. فهى تنتشى بالزهرة .. وتهيم فى القمر .. وتتطلع (ميّ) إلى السماء .. وتقول :

« ماذا أرى فى القبة الزرقاء ..
أرى الكواكب .. تظهر فى جلد السماء ..
والقمر فى ريعانه .. يستعد للغروب ..
القمر الذى أهواه .. حتى العبادة ..
القمر الذى أراه دوامًا فى ليالى لبنان ..
يارسول العواطف .. وملتقى الرغبات ..
يامعزى البؤساء .. وسميرهم ..

★ ★ ★

وتتغنى (مىّ) للطبيعة فى كل أوقاتها .. فتقول :
« أحب حرارة الربيع ..
وأحب أزاهيره البيضاء .. والحمراء .. والزرقاء ..
وأهوى دندنات الطبيعة الخافتة ..
أحب موج البحر .. ينثر لآلئه عند أقدام الصخور ..
فيضمحل تاركا .. بساطًا أبيض على الرمال المذهبة ..
أهوى خزير الساقية .. يتحطم على الحصى ..
أهوى نسيم البحر العليل .. يتغلغل فى شعرى ..

★ ★ ★

ولقد كانت (مىّ) .. تميل إلى الوحدة والعزلة .. كانت إنسانة متأملة .. مفكرة .. رقيقة المشاعر .. موهوبة الإبداع .. فهى قيثارة من قيثارات الطبيعة .. كخرير الجدول .. وتغريد الطيور ..

ولا أجد هنا أجمل .. ولا أرق .. ولا أروع من مناجاتها للطير .. عصفورها المغرد الذى مات .. ورثته مى كما ترثى المحبوب :

« ما أسرع ما تتمزق أثواب الورود .. وما أتعس القلوب الشديدة التأثر .. يمر النسيم العليل على الأزهار النضرة .. فتشقشق بوطنه .. جلابيها .. وتنثر وريقاتها .. كذلك تكفى ملامسة الألم .. النفس المنفردة ليثير منها الأشجان .. ويستقطر من محاجرها العبرات .. » .

من الرجال .. من يكتفون بالمجد والوجاهة والفخر .. ومن النساء .. من لا يفهمن الحياة إلا بالزينة .. والغنى .. وارتفاع القدر ..

أما أنا .. فلا هذه العطايا تعزّنى .. ولا تلك المواهب تستهوينى .. شىء واحد تام الجمال فى تقديرى .. وهو ما يشترك فى تركيبه .. قسم كبير من الفكر .. وقسم أكبر من القلب .. شىء واحد ينبه إعجابى .. وهو ما كان مترفعًا من الصغائر والدنايا .. هو زهرة نادرة المثال شمس الذكاء والمعرفة تحييها .. ومياه العواطف العذبة تزويها ..

ما أتعس القلب الحساس .. وما ألينه لاستحكام الجراح فى ثنياته ..

طائر صغير .. نسمت أشعة الشمس .. ذهب جناحيه .. وانحنى الليل عليه .. فترك من سواده قبلة فى عينيه .. ثم سقطت عليه يد البشر .. فضيقت دائرة فضائه .. وسجنته فى قفص كان عشه فى حياته .. ونعشه فى مماته ..

طائر صغير .. أحببته شهورًا طوالًا ..

غرد لكآبتى فأطربها .. ناجى وحشتى فآنسها .. غنى لقلبى .. فأرقصه .. ونادم وحدتى .. فملأها ألحانًا ..

امتزج ذكره بحياتى .. فحل عندى محل الصديق .. لا تصلنى به اللغة .. ولا يقربه منى التفاهم الروحى .. بل يعززه إلىّ .. حضوره الدائم .. وإن لم يبال هو بحضورى .. وصوته الرخيم وإن لم يغرد .. ألا .. لأن التغريد من طبعه .. وسروره الذى لا يعرف الكآبة .. واصطباره على ضيق الفضاء .. وقناعته بما قدر له من النور .. والهواء ..

لما أبكتنى الآلام .. أريته منديلى مبللًا بالدموع .. فأعرض عنى .. إنما تستدر الدموع ظلمة الأحزان .. كما يستدر الندى .. ظلام الليل .. وروح الأطيار .. شعاع مغرد .. فكيف يتفهم النور والظلام ..

ثم أشرت بيدى إلى الأثير البعيد .. لعلى أرى من طائرى زفرة تنبئنى عن لوعة فى قلبه .. ولكنه أخذ يتنقل على قضبان قفص .. غير مبال بى ..

كمن يقول : « النور لا ينظر إلى الشمس .. والقلب لا يحدق فى الروح .. لأن كليهما واحد .. أنا لا أنظر إلى الأثير .. لأن فىَّ نقطة منه .. إنى فيه .. وإن بعدت عنه كالشاعر الذى يظل محلقًا فى سماء الخيال .. والمعانى .. وأن وثق الناس .. أنه بجالسهم .. مصغيًا إلى .. أحاديثهم ..

وإذا أتيته بالأزهار .. نازعه عنها وريقاتها .. فارشة بها مهبط القفص .. لعلى أرضية .. شرع يدوسها استخفافًا ..

متابعًا تغريده .. كأنه فيلسوف .. لا يكترث للصغائر .. وأنه جبلت منها المظاهر .. ولا يهتم إلا بما ينبه قوى البحث والتفكير .. فى جنانه ..

فى الصباح .. كنت أفتح عينى .. فيستقبل استيقاظى بالغناء .. وتسيل موسيقى أنغامه على قلبى .. فتنبهه .. وتسكره حمًا ..

وفى النهار .. كنت أجلس للدرس .. والتحبير .. فتشمئز نفسى أحيانًا من عبوس الكتب .. ويثقل يراعى فى يدى .. كأنه صولجان تنازل عن ملكه .. فيأخذ كنارى فى الزقزقة .. والتغريد .. وتأتى جماعة طير من الخارج .. فتتوحد التغاريد .. عند نافذتى .. كما تمتزج الألحان .. فى قلب الأمواج .. إذ ذاك .. تبتسم الأفكار على صفحات الكتب .. أمام ناظرى .. ويتمايل قلمى تمايل الصفصاف قرب الغدير .. وتتجلى الغيوم .. عن صفحات نفسى .. وتطرب روحى ..

وفى المساء .. يصمت إجلالًا لقداسة الظلام .. فيخفى رأسه بين جناحيه .. ويجمد جمود المفكر .. ساعتئذ .. تأتى بنات خيالى .. محلولة الشعر .. وورد الابتسام منوّر على شفتيها .. ومصباح الشعر .. متقد فى عينيها .. فتعقد حلقة .. وتدور راقصة حول أحلامى .. ومنشدة أناشيدها .. بألحان سحر .. كأعماق اللجج .. أناشيد عجيبة .. لم يسمعها إلا خيال روحى المتهادى بين أولئك العذارى الراقصات .. ولم أفهمها .. إلا بحاسة سادسة .. تنبثق فى قلب الشاعر .. فى ساعات

الوحدة والكآبة .. بينما ملوك الجوزاء .. تطل من علاها .. ناظرة إليَّ من نافذتى المفتوحة على آفاق الليل .. والكنار يرقبنى بعينيه المخفيتين .. تحت جناحيه الذهبيين ..

والآن .. أنظر إلى القفص ..

لقد صمت الطائر المغنى .. وجمد الشعاع المحنىَّ .. فلا ترى فى القفص إلا قليلًا من الشمس المائتة ..

مات الصغير .. الضرير .. مات صغير حشاشتى ..

مات عند بزوغ الفجر .. وقبل انقضاء الربيع .. ولا يبقى فى خاطرى .. إلا أثر .. من ذلك اللحن المتواضع البديع .. شعاع ذهبى أطل حينًا .. واختفى .. فى كبد الآفاق .. ابتسامة لطف .. أشرقت .. وما لبثت أن توارت فى أخفية الظلام ..

نور فكر ضاء .. ثم اضمحل .. فى لجج العدم .. وردة أثير .. تنفست .. فعطرت .. وأسكرت .. ثم ذبلت .. نغمة حب تموجت ساعة .. ثم .. تلاشت فى هاوية السكينة ..

صديق صغير .. غرّد .. فأطربنى .. وسكن فى جوارى .. وأنسنى .. ولما مزق قلبى .. العالم بشره .. وصغائره .. غنى طائرى .. فأنسانى قبح القباحة .. وجعلنى أفكر فى كل حسن بهى ..

هذه قيثارتى .. فقدت أحد أوتارها .. فنـاحت بلابل أنغامها .. فما أتعس القلوب الشديدة التأثر !. وما أمر الجرح الصغير الذى يفتح جراحات كبيرات !.

سر الوجود .. وسرّ الفناء .. من يستطيع اكتناههما .. فى كل ذرة من ذرات الكون .. ظمأ الارتواء .. خمرة الحياة .. وشوق مبرح للنمو .. وبلوغ أكمل الحالات الممكنة ..

فما غاية هذا الشوق .. ولماذا وجد ذلك الظمأ ..؟ إذا كان الفناء كعبة الكمال .. ونهايته ..؟ أتلاشى ما كان فى طائرى من أنس وإيناس ..؟ أضاعت نفسه الصغيرة الحلـــوة .. فى الأثير ..؟ كما امتزجت تغاريده بأمواج الهواء .. وعناصر جسمه بالتراب والماء ..؟ أم هو يحفظ جوهر ذاتيته .. ويظل هو .. هو .. فى مجاهل الفضاء ..

وعلام وجد ..؟ ولماذا قضى ..؟ ألهذا الفناء ترقى نوعه ..؟ حتى صار طائرًا غريدًا ..؟ أعاش يومًا .. وكان من نصيبى لكى يطربنى .. ثم يوحشنى .. يزيل كآبة نفسى حنينًا .. ثم يتركنى حائرة فى أمره .. وأمرى ..؟

★ ★ ★

أين الحكيم .. يكشف لنا هذه السرائر .. ويزيح الستار عما فى الحياة من الغوامض ..

وأنتم أيها الموتى .. أطيارًا كنتم أم بشرًا .. ألا تنطقون مرة .. لكى تفضوا إلينا بما طوى من الأسرار .. وراء حجب الردى ..؟ ألا .. ألا .. بالكلمة الأولى من اللغز الأزلى السرمدى .. الكامن فى ضمير الغيب ..

★ ★ ★

كل هذا الحزن والألم .. والمعاناة .. عاشت فيه (مى) لموت طائر صغير .. أحبته .. وداعبته .. وآنسها .. وآنسته .. فكم بالحرى موت حبيب الروح .. وتوأم النفس .. (جبران) ..

ماذا تفعل هذه الأنثى الرقيقة المتسربلة بالألم .. وقد انفطر قلبها لموت معشوقها الخالد .. حبيب ولاكل المحبين .. (جبران) .. أنيس العمر .. ومحور الفكر .. (جبران) .. حبيب (مى) .. ؟

فلا مضى إذن لقولهم .. « لقد جنت (مىّ) » .. لها الحق كل الحق فى أن تجن .. وأن تعتزل الدنيا كلها .. لقد مات حبيبها ..؟ فلم الحياة ..؟ ولم الأمل ..؟ ولم إشراقة النهار .. وزرقة السماء .. وزقزقة العصافير .. وضياء القمر .. ولمعان النجوم .. وحفيف الأغصان .. وازدهار الورود ..؟

لم الحياة إذن .. وقد غاب سر الحياة .. وسر الوجود ..؟

إنها لم تفعل .. إلا ما كان يجب أن تفعله كل أنثى .. خفاقة المشاعر .. رقيقة القلب .. شفافة الروح .. وجدت قلبها .. ومشاعرها فى حب حبيب معبود .. عميق النظرات .. ساحر اللفتات .. آسرًا .. فاتنًا .. خلابًا .. فنانًا .. عاشقًا ومعشوقًا .. لكل النساء .. عابدًا ومعبودًا .. ساحرًا .. مسترسل الشعر .. (نبىّ) وفنان .. (جبران) .. (جبران) ..!

إننى لا أشك أبدًا فى أن مناجاتها للعيون كانت مستوحاة من سحر عيون (جبران) ..

صورته التى تضعها أمامها .. وتتعمق بعمق وولـه نظراتها .. وترتجف أوصالها من هذه النظرات الثاقبة .. فتهيم فيها وجدًا .. وتذوب حنانًا وحنينًا ..!

نعم .. نعم .. أننى لا أشك مطلقًا .. فى أن مناجاتها للعيون .. فى قصيدتها (العيون) .. لم تكن تقصد بها .. إلا (جبران) .. و (جبران) وحده .. (جبران) الذى جعلها تهيم فى بحور العيون بكافة ألوانها .. وحدقاتها .. وتأثيرها .. وخاصة عيون (جبران) العسلية .. وحلاوتها ..

«تلك الأحداق القاتمة فى الوجوه .. كتعاويذ من حلك ولجّين .. تلك المياه الجائلة بين الأسفار والأهداب كبحيرات تنطق بالشواطئ .. وأشجار الحور» ..

أنها تقول :

« العيون .. ألا تدهشك العيون ..؟

العيـون الرماديـة .. بأحلامهـا ..

العيـون الزرقـاء .. بتنوعهـا ..

العيـون العسـلية .. بحلاوتـها ..

العيـون البنيـة .. بجاذبيتـها ..

العيون القاتمة .. بما يتناوبها من قوة وعذوبة ..

★ ★ ★

جميع العيون ..

تلك التى تذكرك بصفاء السماء ..

وتلك التى يركد فيها عمق اليموم ..

وتلك التى تريك مغاور الصحراء .. وسرابها ..
وتلك التى تعرج بخيالك فى ملكوت أثيرى ..؟ كله بها ..
وتلك التى تمر فيها سحائب مبرقة مضيئة ..
وتلك التى لا يتحول عنها بصرك إلا ليبحث عن شامة فى الوجه ..

★ ★ ★

العيون .. الضيقة المستديرة ..
العيون .. اللوزية المستطيلة ..
وتلك الغائرة فى محاجرها .. لشدة ما تتمعن وتبصر ..
وتلك الرحيبة اللواحظ .. البطيئة الحركات ..
وتلك التى تطفو عليها الأجفان العليا بهدوء .. كما ترفرف أسراب الطيور البيضاء على بحيرات الشمال ..
وتلك الأخرى ذات اللهيب الأخضر .. التى تلوى شعاعها كعقافة كلاب على القلب فتسجنه ..
وغيرها .. وغيرها .. وغيرها ..؟
العيون التى تشعر ..
العيون التى تفكر ..
العيون التى تتمتع ..
العيون التى تترنم ..
وتلك التى عسكرت فيها الأحقاد والحفائظ ..
وتلك التى غرزت فى شعابها الأسرار ..
جميع العيون .. وجميع أسرار العيون ..
تلك التى يظل فيها الوحى طلعة خبأة ..

وتلك التى تكاثفت عليها أغشية الخمول ..
وتلك التى يتسع سوادها .. أمام من تحب .. وينكمش لدى من تكره ..
وتلك التى لاتفتأ سائلة : «من أنت» ؟ وكلما أجبتها .. زادت استفهامًا ..
وتلك التى تصرخ : «بى احتياج إلى الألم» ..
«أليس بين الناس .. من يتقن تعذيبى ؟» .
وتلك التى تقول : «بى حاجة إلى الاستبداد» ..
«فأين ضحيتى ؟»
وتلك التى تبتسم .. وتتوسل ..؟
وتلك التى يشخص فيها انجذاب الصلاة ..
وانخطاف المصلى ..
وتلك التى تظل مستطلقة خفاياك .. وهى تقول : « ألا تعرفنى » ....؟
وتلك التى يتعاقب فى مياهها كل استخبار .. وكل انجذاب .. وكل نفى .. وكل إثبات ..؟
العيون .. العيون .. جميع العيون ..؟
ألا تدهشك العيون ..؟

★ ★ ★

وأنت .. ما لون عينيك ..؟ وما معناهما ..؟ وإلى أى نقطة من المرئيات .. أو وراءها .. ترميان ..؟

قم إلى مرآتك .. وانظر إلى طلسميك .. السحريين .. هل درستهما قبل اليوم ..؟

تفرّس فى أعماقهما .. تتبين الذات .. العليمة .. التى ترصد حركات الأنام .. وتساير دورة الأفلاك .. والأزقة .. فى أعماق أعماقهما .. ترى كل مشهد .. وكل وجه .. وكل شىء ..

وإذا شئت أن تعرفنى .. أنا المجهولة .. تفرس فى حدقتيك .. بحدقى نظرك .. فى نظرك .. على رغم منك ..

★ ★ ★

(مَىّ) الألم .. الحب ... والموت

(مىّ)
الألم .. الحب .. والموت

لم يشعر بآلام (مىّ) .. فى كل من كتبوا عنها .. إلا واحدة فقط .. كتبت الصدق .. بأحسيس جنس واحد .. عاش وتغذى .. وامتزج بالألم .. فى كل الكلمات التى قيلت .. لم ينصفها قلم .. بقول صدق .. وحقيقة ثابتة .. متعايشة .. قدر ما أنصفها قلم (الدكتورة عائشة عبد الرحمن) .. [بنت الشاطئ] .. إنه الوصف الحقيقى لمشاعر .. وآلام (مىّ) .. فقد كتبت بنت الشاطئ تقول :

« إن أكثركم قد رآها فى هالة من أضواء الشهرة .. يتوجها إكليل من المجد .. وتضج من حولها .. صيحات الهتاف ..؟

فهل منكم .. من غالب الأضواء .. فرأى فى إهاب الكاتبة الشهيرة .. الإنسانة .. التى تتوجع .. وتتألم .. وتتلوى .. والناس من حولها .. يهتفون لها ..؟

ما أروع وأصدق هذا التعبير .. فإن (مىّ) كانت إنسانة .. تعيش فقط .. لتتألم ..؟

وإن أشد ما تتألم منه المرأة .. هو .. « الوحدة » وحدة القلب .. وحدة الروح .. وحدة المشاعر والوجدان .. وحدة مريرة بلا أنيس ولا رفيق .. تتوكأ عليه فى مسارات ودروب الحياة؟ ..

« مىّ »

لتقل كل منهن .. كان حبيبى .. مع أنه لم يكن جبران

وهكذا كانت (مىّ) .. لقد شعرت بالوحدة .. وبوحشة الوحدة .. ومرارتها الكئيبة .. وشعرت فى النهاية .. بأنها «وحيدة» ..

وكانت الطبيعة الحساسة هى مصدر هذه المتاعب فإنها كانت تعيش فى لون من الاحتراس المفرط .. وشدة الانطواء .. مع «الحيطة والكتمان» ..

كان إحساسها يعيش فى الماضى .. ماضى أيامها ومجدها ..!

سافرت إلى فرنسا .. وإنجلترا .. وإيطاليا .. مرات .. لتجدد نفسها .. ولكنها عادت .. ولم يتجدد فيها .. إلا الأحزان .. والآلام ..!

كان إحساسها بالفعل .. يعيش فى الماضى .. وفى الخيال ..

لقد سبقت (مىّ) الزمن .. وظنت أنها ستجد الرجل .. والإنسان .. والحبيب .. والزوج .. وكانت تعتقد أنها تستطيع أن تواجه الحياة على هذه الصورة .. من الحرية .. والجرأة .. التى عاشتها فى كنف أبويها .. وفى ظلال مجتمع يحوطها بالحب والحنان .. وهى فى ظل أسرة .. ولكنها بعد أن أضبحت وحيدة .. ومات أبويها .. وانفضّ عنها معجبوها .. وظهر الطامعين فيها ..

هنا .. فقط شعرت بأنها كانت واهمة .. وبأنها كانت مخدوعة .. رأت كل شىء حولها .. غارقًا فى القيود .. والكائن الرجعى لا يزال قائمًا فى كل نفس .. والجشع .. والاستغلال .. استغلال أنوثتها .. ووحدتها .. ظهرا على الطبيعة وانجلت الحقيقة .. واتضحت الرؤيا ..

«أنها فتاة .. وفتاة وحيدة .. بلا رجل ..

فتاة تظهر بمظهر غير سوى .. لأنها تعيش وحيدة .. بلا رجل .. وتعيش متمسكة بأهداب الفضيلة .. والدين .. متمسكة بقيمها ومثلها .. وشرف عنصرها .. ولم تشعر بذلك الشعور إلا بعد أن تقدمت بها السن .. وكان (جبران) أملًا لها .. واختفى هذا الأمل ..» .

★ ★ ★

وهكذا .. تجهّم وجه الحياة .. وجاءت المأساة .. «مأساة امرأة جميلة .. وحيدة .. شاعرة .. أديبة .. فى عصر كانت هى فيه من الشواذ .. وكان لابد أن تضيع فى أوهام هذه الحياة .. وأن تكون ضحية لأوهام الحياة» ..

★ ★ ★

لقد مرت (ميّ) بأقسى تجربة يمكن أن تمر بها امرأة .. لقد عاشت الألم .. وامتصت رحيقه .. رشفة .. رشّفة .. تتجرع سمومه .. ونيرانه .. وحيدة إلا من أطياف وأوهام .. الماضى .. لقد عانت من ألم المشاعر الكامنة فى نفس فتاة مثقفة .. متحررة .. تتحدث إلى أعلام الفكر .. فى «صالون الثلاثاء» وبين واقع الحياة .. بتقاليدها .. ومطامعها .. وفوارق الأديان والعواطف .. والسن .. لقد أعطت (ميّ) لنفسها الحرية الكاملة .. فى أن تكتب .. وتخطب .. وتتحدث ..

وتسافر .. إلى أوروبا .. وتجرى مع تيار الحضارة .. الحديثة .. وكانت موضع إعجاب من كثير من أعلام الفكر .. منهم من نظم فيها القصائد .. ومن كتب الرسائل .. وهى .. هى .. المسكينة الهائمة ..

ترنو إلى غريب .. بعيد .. بعيد .. وراء البحار .. تحلم به .. وتنتظره .. وتعيش فى شوق ولهفة للقاء هذا الحبيب .. ثم لا يلبث الزمن .. أن يطوى صورة .. ليضع مكانها صورة أخرى .. فيموت هذا الإنسان .. الغائب .. المعبود .. ثم .. تموت الأم .. ثم .. تبدو الوحدة الشاحبة الحزينة .. ثم تجرى عبارات من هنا .. أو هناك .. ثم تضطرب الأعصاب .. ويبدو شبح مرض .. خلف الأحزان والمخاوف .. ثم تأتى المعاناة الكبرى .. حين يلتف الأهل .. المغرضون .. بالفتاة الوحيدة .. البائسة .. الضائعة فى دنيا الطامعين فيها .. لينقلوها إلى مستشفى العصفورية فى لبنان .. لتمضى هناك .. سنوات ألم وعذاب ..

هل هناك ألم .. أمرّ وأقسى من هذا الألم ..؟

هذه الفتاة .. المعشوقة .. تكون نهايتها .. بركانًا من الألم .. ولهيبًا من النيران .. وبحرًا من الدموع ..

تبكى .. وتبكى .. وتبكى ..؟

تبكى الحبيب الغائب .. والوحدة المريرة .. ذلك الحبيب .. الذى كان هو أيضًا يعانى .. يعانى من آلام .. ووحدة .. وغربة ..

كائن يعيش بظل المرض .. والمعاناة .. التى بلغت عنده حدًا .. يتعدى الصبر .. إنهما .. صنوان فى الألم ..! تألم وتألم .. حتى ليقول فى رسالة منه إلى (ميّ) :

أنا يا (ميّ) .. بركان صغير .. سدت فوهته .. فلو تمكنت اليوم .. من كتابة شىء كبير .. أو جميل .. لشفيت تمامًا .. لو كان بإمكانى أن أصرخ عاليًا .. لعادت عافيتى .. هذه هى علتى علة فى النفس .. ظهرت أعراضها فى « الجسد » ..

★ ★ ★

كلاهما .. عانى .. وتألم .. وتعذب فى الوحدة والغربة .. والعزلة .. والمرض .. والاضمحلال ..

لقد ابتلعت (ميّ) بعضًا من السم الذى هيأته الطبيعة لـ (جبران) .. بوعى منه .. وبإرادة .. شبه صريحة .. لأنه شاء أن تولول عليه النسوة .. عند موته .. وتقول كل واحدة منهنّ : «كان حبيبى .. مع أنه لم يكن » ..

★ ★ ★

ترى .. هل هو قدر العباقرة .. أن يحكوا مع الناس .. من خلال شذوذهم .. العقلى .. أم أن ما يفعلونه هو .. عين الصواب ..! ويعجز العاديون من الناس .. عن فهمهم .. فيصمونهم .. بالجنون ..

قد يكون التسامى إلى مستوى العبقرى .. صعبًا .. كالتهافت إلى مستوى الجنون .. فيتسم الواحد .. بصفات الآخر .. ولو فى الظاهر .. لتضيع الحقيقة .. كما ضاعت علينا .. فى معرفة حقيقة .. (ميّ) .. و (جبران) ..

★ ★ ★

ذاعت شهرة (جبران) قد وصلت إلى مصر .. وقرأ كتبه بعض الأدباء والنقاد .. فلم يعجبهم جموح الخيال .. وغموض الأفكار .. فى بعض الخواطر والصور .. الجبرانية .. أمّا (ميّ) .. فقد أحست فى روح (جبران) .. عاطفة إنسانية .. وخطر ببالها أن تعقد مع (جبران) تعارفًا أدبيًا .. وكان إلهامًا غيبيًا .. ناداها .. بأن تقدم على صداقة هذا الأديب البعيد .. الذى لم تكن تدرى بأن القدر قد نسج شباكه ليرميها فيها .. رهن حب ضائع .. وأمل شرير ..! وكانت رسالتها الأولى له .. فى عام ١٩١٢

وكان (جبران) فى ذلك الحين .. يعانى قلقًا نفسيًا .. لا يدرى سببه .. أحبابه من حوله .. وفيهم أخته .. التى تبيع نور عينيها .. وتعب يديها لكى يعيش كما يريد .. وهو منصرف إلى فنه وقلمه .. لكنه .. يشعر شعورًا مريرًا بألم الغربة عن وطنه .. بل عن هولاء الذين يصاحبهم .. ويماسيهم .. إذا كان يحس أنهم لا يفهمون همه .. ولا يدركون سره ..

كان يتسلى بالريشة والألوان .. فإذا سئمها .. أخذ قلمه .. وغمسه فى مداد الشوق .. والحرمان .. وكتب سطورًا وأعد صورًا .. تتأجج فى نثرها .. وشعرها .. نقمته على الحياة الغاشمة .. وخضوعها للمادة .. فى عالم جبار لا يكل .. ولا يمل .. وراء .. الدولار .. أو الدينار ..

ولما تسلم (جبران) .. رسالة (ميّ) .. هدأت نفسه .. فقد تلمس فى كلماتها نفسًا ثائرة حائرة .. وروحًا أدبية موهوبة .. ناشئة .. فلم يهمل الإجابة على رسالتها .. ثم شكر لها .. ثناءها على أدبه .. وحدثها عن نفسه قائلًا :

« أما أنا .. فقد ورثت عن أمى .. تسعين فى المائة من أخلاقى وميولى .. ولا أعنى أنى أشابهها بالحلاوة .. والوداعة .. وكبر القلب .. وأنى أذكر قولها لى مرة .. وقد كنت فى العشرين :

« لو دخلت الدير .. لكان ذلك أفضل لى .. وللناس ..؟

فقلت : نعم .. ولكنى اتخذتك أمًا .. قبل أن أجىء إلى هذا العالم ..؟

فقالت : لو لم تجىء .. لبقيت ملاكًا فى السماء ..

فقلت : ولم أزل ملاكًا :

فتبسمت وقالت : أين أجنحتك ..؟

فوضعت يدها على كتفى .. وقلت أنا : هنا ..

فقالت : ولكنها .. منكسرة .. » .

«وبعد هذا الحديث .. ذهبت أمى إلى ماوراء الأفق .. الأزرق .. أماكلمتها .. «منكسرة» .. فظلت تتمايل فى مسمعى .. ومن هذه الكلمة .. غزلت .. ونسجت .. كتابى : (الأجنحة المتكسرة) » .

★ ★ ★

ولم يشأ (جبران) أن يصور لها شعوره بالشقاء .. لبقائه عالة على شقيقته .. يعيش من كدها .. إذ لا يكفيه ما يأخذه ثمنًا لصوره .. وخواطره ..

وكانت رسائل (مىّ) سلواه فى بلواه .. وإلهامه فى كثير من مقالاته النائرة ..

وكتب إليها يقول :

«ما أجمل رسائلك يا (مىّ) ..؟ وما أشهاها ..

فهى مثل نهر من الرحيق .. يتدفق من الأعالى .. ويسير مترنمًا فى وادى أحلامى ..

« أنا غريب فى هذا العالم » ..

أنا غريب .. وفى الغربة وحدة قاسية موجعة ..

أنا غريب عن أهلى .. وخلانى ..

أنا غريب .. وقد جبت بمشارق الأرض .. ومغاربها .. فلم أجد مسقط رأسى .. ولا لقيت من يعرفنى .. أو يسمع بى ..

أنا غريب .. وليس فى الوجود من يعرف كلمة من نفسى ..

أنا غريب .. وسأبقى غريبًا حتى تخطفنى المنية .. وتحملنى إلى وطنى ..! » .

★ ★ ★

فشعرت (مىّ) .. بأن قلبها يذوب حنانًا .. وحنينًا .. ولهفة .. لقد أمضتها كلمة .. « الغربة .. والغريب » .. وتألمت لمواجع (جبران) فى اغترابه .. تألمت من أجله .. وشعرت بازدياد التآلف والقربى .. بينهما .. على الرغم من كل بعاد يفصل بينهما .. فأرسلت إليه تهدهد نفسه .. وعاودها الشوق إلى صورته .. ورسائله .. وأخذت تنظر إليها .. واستهواها (جبران) بجماله .. ووجدت فيه .. « فتى أحلامها » ولمح لها بالزواج .. فأجابته : « هل أذكرك بأنى وحيدة أبوى » ..؟

كانت (ميّ) .. فى تعلقها بـ(جبـران) .. متعلقـة .. بوالديها .. حائرة فى أمرها .. وسرها .. وقد عاشت فى نضج شبابها .. وتفكيرها .. تعانى حربًا .. نفسية .. ولولا ندوتها التى كانت سلواها فى معاناتها .. لأدركتها الخيبة والمحنة قبل أن يغيب عنها أبويها .. اللذين عاشا من أجلها .. وآثرتهما على نفسها .. وعلى الحبيب الغريب ..

لقد دعاها (جبران) .. للذهاب إليه .. ناداها .. بنداء الحب فلم تذهب ..؟ ولمَ لم تذهب .. لمَ لم تطفئ نار الجوى بين قلبين عشق كل منهما الآخر ..

أن التقاليد التى شن عليها جبران ألف غارة .. هى التى ختمت مأساة من أحبته حبًا جمًا .. هذا الختام الفاجع .. أبت البنت أن تخفض رأسها كبرياءً .. وعزة .. وتذهب إلى لقاء الشاب .. فمات (جبران) .. وعاشت هى من بعده .. وحيدة .. حزينة متألمة ..

عاشت كـ(راحيل) التى لا تريد أن تتعزى ..

مسكينة (ميّ) .. لقد فقدت والديها .. واحدًا بعد الآخر .. مات أبوها .. بعد داء عضال .. عام ١٩٣٠ ، وقد زاد من حدة المرض .. ماكابده من شركائه .. فى قطعة أرض صغيرة .. بلبنان .. لم يستطع أن يستخلصها لوحيدته .. فتركها مشكلة معقدة .. كانت من الحزازات المنغصة فى صدرها .. وفى عام ١٩٣١ .. أشتد قلقها من أجل الحبيب الغريب .. الذى ترامت المسافات دونه .. كما ترامت روحها عليه .. فقد

أخبرها بتهافت صحته .. بعد وعد منه بالعودة إلى وطنهما الأول .. وإذ هو .. يودع الحياة .. فجأة ..! فحفر موته حفرة عميقة فى آمالها .. ومصيرها .. وكانت أمها الحنون (نزهة معمّد) تهدهد حزنها ووجومها .. ولا تعلم .. أن حزن (ميّ) .. عليها بعد شهـور .. كان من أقسى الآلام .. التـى أقضت مضجعها .. وسودت الحياة فى نظرها .. وشعورها ..

لقد فقدت (ميّ) .. بفقد أمها .. الحنان والرجاء .. وفقدت البشاشة والسعادة .. وعادت إليهـا .. مشكلـة الأرض الموروثة .. المفقودة .. وهى تعانى الحيرة والكآبة .. من جراء ما أحاط بها من طمع المتربصين .. وأقاويل الشامتين ..

كانت تتلفت فى بيتها .. فإذا هى وحيدة .. حبيسة بين هؤلاء الذين رأوها معرضة عنهم .. يطاردها حنين الوالدين .. وطيف الندوة .. التى خلت من روادها .. حين آثرت العزلة .. وتحافت عن لقاء الأهل والصحاب .. حتى المرآة .. هجرتها .. وأصبحت تخشى أن ترى وجهها المحزون على صفحتها .. وقد لاح فى ملامحها الكمد .. والشعور بالفراغ .. وتخطى السنين .. التى كانت تجتذب فيها .. مرتادى مجلسها ..

لقد رأت شجرتها التى كانت وارفة الظلال .. مثمرة .. قد أخذت أوراقها تتساقط .. وقد ذوى رونقها .. ونضرتها ..

وكانت من أشد العناصر قسوة عليها .. فى محنتها .. «نشأتها الدينية» التى وضعت نفسها بين جدران صفيقة ..

فى حبس النساء المتبتلات .. فلو لم تنشأ فى ظل الرهبانية .. وتعاليم الدير .. لما قست على نفسها بالحساب العسير .. ولو أنها أخذت فى صباها .. بضرب من المرح .. والحرية .. لكان لها شأن آخر .. فى مقاومة محنتها .. والتغلب عليها ..

ولقد ثابرت (مىّ) فى وحدتها .. ومحنتها على القراءة والتأليف .. وأخذت فى قلقها تصطنع لفائف الدخان .. وهى التى كانت تجتويها .. لعلها تجد فى التنفيخ .. تسرية عنها .. وقد رآها .. الأديب الكبير .. إبراهيم المصرى .. تجمع لفائف الدخان أنصافا فى علبتها .. لكى لا يطول التنفيخ بها ..

★ ★ ★

واسودت الدنيا فى نظرها .. وكرهت الحياة .. ورفضت أن تلقى صديقًا .. ولما اشتد عذابها النفسى تمنت الموت .. لتتخلص من الهموم .. وقد عبرت عن ألمها هذا .. بأنها عجزت عن تصويره .. فى رسالة كتبتها إلى قريب لها هو (دكتور جوزيف) والذى استغل هذه الرسالة لصالحه .. ولأغراضه الشريرة فيما بعد :

«إن هناك أمرًا يمزق أحشائى .. ويميتنى .. فى كل يوم .. وفى كل دقيقة .. لقد تراكمت علىّ المصائب فى السنوات الأخيرة .. وانقضت على وحدتى الرهيبة .. التى هى معنوية .. أكثر منها جسدية .. فجعلتنى أتساءل ..

كيف يمكن أن يقاوم عقلى عذابًا كهذا .. ينبغى خلق تعبير لتفسير ما أحس به» ..

★ ★ ★

وهنا نقف قليلًا لنتمعن فى رسالة (مىّ) وفى سطر واحد فقط وهو :

«كيف يمكن أن يقاوم عقلى .. عذابًا كهذا؟» ..

إن كلمة (عقلى) هى الكلمة التى كان فيها مفتاح شقاء (مىّ) .. فإن قريبها الشرير .. استغل كلمة - «عقلى - والعذاب العقلى .. وعدم مقاومته» أسوأ استغلال .. وأصر عليها إصرارًا مبينًا .. ليوصلها فى النهاية .. وبإثبات لكلماتها هذه .. إلى مستشفى العصفورية .. لتحقيق مطامعه وأغراضه .. فى تملك أراضيها بلبنان .. وما تملك يمينها .. مدعيًا .. الشفقة عليها والتعاطف معها .. مسدلًا ستارًا كثيفًا على نواياه الشريرة ..

إن عذاب (مىّ) كان نفسيًا أكثر منه جسديًا .. لقد تألمت من هؤلاء الذين وثقت بهم .. فخدعوها .. فإن رسالتها إلى قريبها .. التى بثت فيها لواعج نفسها .. وآلامها .. اتخذها هذا القريب .. قرينة ضدها .. وإثباتًا لمرضها .. لقد ظنت أن ابن عمها سيساعدها فى محنتها .. فإذا به يقتنص الفرصة لاستغلال الموقف .. وإيداعها فى العصفورية ..

لقد هرع إليها ابن عمها .. لا ليساعدها .. ويخفف من آلامها .. ولكنه فى الحقيقة .. هرع إليها .. ليستكشف أعمالها .. وماليتها .. ويخاطبها برقة لتعينه وكيلًا لأعمالها .. ليجعلها توقع على تنازل بكل أراضيها وأملاكها .. ويضعها فى «العصفورية» .. كمريضة .. مخبولة .. مختلة العقل ..

وتلفتت وهى وحيدة فى العصفورية .. إلا من أفكارها الثائرة .. لعلها تجد ذا مروءة لينقذها من هذا الغادر الجبان .. فلم تر إلا الوحشة .. ونظرات المصدقين .. بأنها مجنونة ..

ورفضت (مىّ» أن تأكل ، وهى فى المصحّ .. ورفضت أن تسرح شعرها .. أو تقلم أظافرها .. ولم يحاول قلب الإنسان .. أن يسعفها برحمة .. أو معونة .. أو يستمع لشكواها من هذا الظلم الذى أصابها ..

لقد ظُلمت (مىّ) من الأهل .. وظُلمت أكثر ممن صدقوا ادعاء جنونها .. وظلمت عندما قيدوا حريتها .. وحجروا على أموالها .. ونهبوا بيتها ..

كانت محط الطامعين .. فى نفسها .. ومالها .. وأدبها ..

فلا عجب إذا ضاقت الحياة بـ (مىّ) .. بعد أن هدتها الفجيعة .. واحدًا بعد الآخر .. وكانت اللوعة بموت (جبران) فادحة .. صارخة .. ففزعت إلى قلمها ترثى الحبيب الذى أشقاها موته .. كما أضناها من قبل انتظاره .. فذكرت فى رثائها .. رسائله الأخيرة إليها .. وقوله فيها .. بأنه يشعر .. بشوق هائل .. إلى الرحيل ..

ودهمت المحنة ميًا بطغيانها .. وكأن لعنة الحب الذى أحرق قبلهما كل المحبين قد أصابتها هى و (جبران) ..

(جبران) الذى يرقد وحيدًا فى (بشرى) وعاشت هى من بعده .. غريبة فى الحياة وفى الممات .. لترقد وحيدة فى (مصر) ..

ماتت .. متألمة .. حزينة .. وحيدة .. غريبة .. ذلك الألم .. والحزن الصامت الرافض لأى معنى من معانى الحياة .. والذى جعل الناس يتهمونها بالجنون ..

كانت تنادى الموت .. وتشتهيه .. لترقد بجوار ذلك الحبيب الذى غاب ..

★ ★ ★

إن الحب العظيم .. الحب الخالد .. الذى كان بين (مىّ) و (جبران) .. كان حبًا أفلاطونيًا عجيبًا .. إنه الحب الذى لا أمل .. لا لشفاء ولا للقاء .. وكانت رسائله إليها .. هى التى أشعلت النار .. وزادتها توهجًا .. وتعلقًا به وحنينًا إليه .. حتى أخذت حياتها تتخذ شكل الأسطورة الخيالية .. فكانت فى حبها .. مثالية الفكر والشعور والوجدان .. وكانت (مىّ) على تعلقها بـ (جبران) .. تخشى الترامى عليه لكبريائها ..

وهو الذى لم تعرف منه .. إلا سطوره .. وكتبه .. وهى فتاة غريبة .. وقد أرسلت إليه فى (آب ١٩٢١) رسالة تقول فيها :

« (جبران) .. أرجو أن تساعدنى وتحمينى .. وتبعد عنى الأذى .. ليس بالروح فقط .. بل بالجسد أيضًا .. أنت الغريب الذى كنت لى .. وعلى الرغم منك .. أبًا .. وأخًا .. ورفيقًا وصديقًا .. وكنت لك أنا .. أمًا .. وأختًا ورفيقة .. وصديقة .. أنا وأنت .. سجينان من سجناء الحياة » ..

وكانت (مىّ) فى تعلقها بـ(جبران) .. متعلقة بوالديها .. حائرة فى أمرها .. وسرها .. وقد عاشت فى نضج شبابها وتفكيرها .. حربًا نفسية .. ولولا ندوتها (كما سبق وأوضحنا) التى كانت سلواها فى معاناتها .. لأدركتها الخيبة والمحنة .. قبل أن يغيب عنها الوالدان .. اللذان عاشا من أجلها .. وآثرتهما على نفسها .. وعلى الحبيب الغائب ..

★ ★ ★

ووالدة (مىّ) .. فى كهولة متهافتة .. تمزقها الحسرة .. لمصير وحيدتها العنيدة .. التى لم يعجبها فى صباها .. ومجدها .. خاطب .. مهما كانت مكانته وشخصيته .. وقد جاوزت الشباب بعد ذلك .. ولم تقطع الرجاء بمن وعدها بالعودة إلى الأرض التى لا تشيخ فيها الحياة .. منبتها .. ومنبته .. (لبنان) .. وأرزها ..! ليلتقيا على الوفاء .. ولكنهما .. لم يلتقيا .. إلا على بعاد .. وموت وشقاء .. دون مالقاء .. وكل منهما فى ثرى .. بعيد .. هو فى منبته .. (بشرى) .. و (مىّ) فى البلد التى أحبتها .. « مصر » ..

هذه .. هى (مىّ) الإنسانة .. التى أحبت .. وتعذبت .. وتحصنت بعفافها .. ومُثُلها .. وقيمها .. ومبادئها .. وحبها .. لتموت شهيدة .. فى الألم .. والحب .. والموت ..

★ ★ ★

(مىّ) زيادة فى سطور

(مىّ) زيادة .. فى سطور

ولـــدت (مىّ) فى فلسطيـــن .. عام ١٨٩٠ .. وعـــقب ولادتها .. انتقلت مع والديها إلـى لبنـان .. فدخلت مدرسة للراهبات .. وأتقنت الكتابة باللغة الفرنسية .. وذاع صيتها .. الأدبى وهى فى العشرين من عمرها .. وصحبت أبويها إلى مصر .. قبل الحرب العالمية الأولى ..

ولقد اختار والدها .. الأستاذ (إلياس زيادة) .. مصر .. موطنًا له .. وأصدر جريدة (المحروسة) يومية .. سياسية .. مسائية .. أصدرها باللغة العربية .. فاتجهت (مىّ) إلـى تقويـة أسلوبها العربى .. فدرست آداب اللغـة .. وتاريـخ العـرب .. والفلسفـة الإسلامية .. والتحقت بالجامعـة المصريـة القديمـة .. وأخـذت تنشر مقالاتها باللغة العربية .. فى جريدة (المحـروسة) وفـى المجلات الأدبية التى كانت مزدهرة فى ذلك الحين .. مثل .. (الهلال) .. و (المقتطف) .. و (الزهور) ..

كان اسمها (مارى زيادة) فاختارت لتوقع باسم (مىّ) .. وقد لصق بها .. هذا الاسم العربى فى اللغة العربية .. وفى جميع اللغات التى انتقلت إليها .. آثار (مىّ) ..

وكانت تتقن ثمان لغات .. عدا العربية .. وقد ألفت ديوان شعر باللغة الفرنسية .. وقصة باللغة الإنجليزية .. وألفت باللغة العربية .. كتبًا كثيرة .. من بينها .. (ابتسامات ودموع) .. (بين الجزر والمد) .. (ظلمات وأشعة) .. (كلمات وإشارات) ..

و (باحثة البادية) .. و (رجوع الموجة) و (عائشة تيمور) .. (الصحائف) .. (سوانح فتاة) .. (غاية الحياة) .. (المساواة) .. (وردة اليازجى) .. وغيرها .. وعدا رسائلها الخالدة إلى (جبران خليل جبران) .. ومقالاتها التى كانت تحدث دويًا فى دنيا الأدب والصحافة فى ذلك الحين ..

وقد بدأت (ميّ) حياتها الاجتماعية بأن أعدت فى بيتها .. «صالونًا» .. يجتمع فيه الأدباء .. وأهل الرأى «يوم الثلاثاء» .. من كل أسبوع .. وكان هذا الصالون فى منزل .. بشارع عدلى .. مكان محطة البنزين القائمة هناك الآن ..

وقد بقيت فى المنزل من عام ١٩١٤ إلى عام ١٩٢١ ثم تركته .. وسكنت فى دور من عمارة تملكها جريدة الأهرام .. وهى العمارة .. التى كانت تشغلها إلى وقت قريب أقسام إدارة الأهرام ..

وكان يتردد على صالون «مى» الأستاذ الدكتور (طه حسين) .. عميد الأدب العربى .. وشيخ العروبة (أحمد زكى) .. وشيخ القضاة (عبد العزيز فهمى) .. وشيخ الشعراء .. (إسماعيل صبرى) .. وشيخ الصحافة .. (داود بركات) .. وشيخ المفكرين .. الدكتور (شبلى شميل) .. والأستاذ الأكبر (مصطفى عبد الرزاق) .. وأمير الشعراء .. (أحمد شوقى) .. وشاعر الأقطار العربية .. (خليل مطران) .. وشاعر النيل .. (حافظ إبراهيم) .. والشاعر الثائر .. (ولى الدين يكن) .. والأديب المحافظ (مصطفى صادق الرافعى) .. والكاتب الكبير .. (أنطون الجميل) .. وأستاذ الجيل (أحمد لطفى السيد) ..

والأستاذ الدكتور منصور فهمى .. والكاتب الكبير .. (عباس محمود العقاد) .. وشيخ الخطاطين .. (نجيب هواوينى ..

وكان يوم الثلاثاء .. يومًا مقدسًا عند رواد الصالون .. قلما يتخلف منهم أحد فى هذا اليوم .. عن زيارة (ميّ) .. إلا إذا كان مريضًا أو على سفر ..

وقد كان شيوخ الصالون يحسون لـ (ميّ) .. عاطفة اختلطت ملامحها .. أهى عاطفة حب أبوى .. أم هى عاطفة حب عذرى ..

★ ★ ★

ويصف (كامل الشناوى) (ميّ) عندما رآها .. لأول مرة .. «كانت ترتدى ثوبًا أسود .. يطل منه وجه مشرب بشىء قليل من الشحوب .. ومن فوق الرأس .. شعرها اللامع المسدل فى بساطة وانسجام .. وكان شعرًا أشد سوادًا من ثوبها ..

لم تكن قصيرة .. ولم تكن طويلة .. كان قوامها نحيلًا .. يريد أن يمتلئ .. سمينًا يريد أن ينحل ..

وظلت (ميّ) تتكلم ساعتين .. عن الإنسانية .. والفكر .. والمحبة .. والسلام .. وقد استهوتنا جميعًا نبراتها العذبة .. وصوتها الهادئ .. الحلو .. العميق .. وإشاراتها .. ونظراتها .. وحسن استعمالها للفتات رأسها .. استهوتنا بنضارتها الفاتنة .. نضارة الفكر .. ونضارة الوجه والقوام ..».

★ ★ ★

ومن رأى لـ (لعقاد) فى (ميّ) أنها :

« كانت متدينة .. تؤمن بالبعث .. وأنها ستقف بين يدى الله يومًا .. يحاسبها على آثامها .. فكانت برغم شعورها بالحياة .. وإحساسها العميق الصادق .. وذكائها الوضاء .. وروحها الشفافة .. ورقتها .. وأنوثتها .. تحرص على أن تمارس هذه الحياة .. بعفة واتزان » ..

★ ★ ★

ويصف الدكتور (طه حسين) وحدة (ميّ) وعزلتها فيقول :

« مضت (ميّ) فى طريقها إلى العزلة .. مضيًا رفيقًا .. أو قل أنها تدرجت بطيئًا فى أول الأمر .. ولكنه .. سريع .. ملح فى آخر الأمر .. وأخذ ميلها للعزلة يظهر .. بعد أن فقدت أبويها .. بعد أن غزا الحزن نفسها المشرقة .. ولكنها لم تقطع صلتها بالناس فجأة .. وإنما قللت من لقائهم ..

وكنت من بين اللذين شرفتهم بصداقتها .. فكنت ألقاها بين حين .. وحين .. فنستخلص لأنفسنا من الدهر وأحداثه .. ساعة .. أو ساعات .. نتحدث فى الأدب .. والفلسفة ..

وكانت (ميّ) فى طور الحزن اللاذع .. والألم الممض .. والتشاؤم الذى كان يتسرع إليها .. كما كانت تسرع إليه » ..

★ ★ ★

وكانت (ميّ) أسطورة .. فى قلوب العشاق .. وأغنية على لسان المحبين .. وحلمًا فى خيال الشعراء ..! وكانت أيضًا .. حقيقة كبيرة ..

فإن (ميّ) .. التى ألهبت قلوب المفكرين .. والشعراء .. والكتاب بالشوق واللهفة .. لم تكن مجرد فتاة تنبض أنوثة .. وتشع ذكاءً .. ولكنها كانت مفكرة ممتازة .. وصاحبة أسلوب فى التعبير .. وكانت ثقافتها متنوعة شاملة .. درست الآداب والتاريخ .. والفنون .. والفلسفة .. وكثيرًا من العلوم .. وأتقنت عدة لغات أجنبية .. فقد ألفت بالفرنسية .. وكتبت مقالات بالإنجليزية .. وراسلت كثيرين باللغتين .. الألمانية والإيطالية .. كانت أديبة كبيرة ..

ولقد ظهرت (ميّ) فى مصر .. بعد ظهور أديبتين .. هما (عائشة التيمورية) .. عمة الأستاذ (محمود تيمور) .. وكانت شاعرة على طريقة شعراء ذلك العصر .. ولها ديوان مطبوع ..

أما الأخرى .. فكانت (باحثة البادية) .. (ملك حفنى ناصف) كريمة القاضى الأديب .. (حفنى ناصف) .. وقرينة السيد (عبد الستار الباسل) .. [وقد ألفت (ميّ) كتابين عنهما] ..

وكانت (ميّ) توقع المقالات .. وتثير المناقشات .. على صفحات الجرائد .. لكن (عائشة) و (ملك) .. كلتاهما كانت تتحدث من وراء حجاب .. ولم تظهر .. أو تخطب فى حفلة .. ولا وجه للمقارنة بينهما .. وبين (ميّ) .. فاختلاف الظروف .. والبيئة .. والثقافة .. والدين .. شق الطريق أمام (ميّ) .. وسد المنافذ فى وجه .. (عائشة) .. و(ملك) ..

ولم يكن صالون (ميّ) .. هو أول صالون أدبى لسيدة فى مصر .. فقد سبقتها إلى ذلك .. الأميرة (نازلى فاضل) .. ولكن .. ما أبعد الفرق بين الصالونين ..

كان صالون (ميّ) للمفكرين من جميع الطبقات وكان صالونًا .. أدبيًا .. عربيًا .. وكان صالون (نازلى) للخاصة .. وكان صالونًا .. اجتماعيًا .. فرنسيًا ..» .

ويقول الدكتور (طه حسين) :

« كانت الأميرة نازلى فاضل .. تستقبل فى صالونها بعابدين .. كبار المصريين .. والأوربيين .. وكانت الأحاديث تتصل غالبًا بالمسائل السياسية .. وكان مغلقًا .. لا يصل إليه إلا الذين ارتفعت بهم حياتهم الاجتماعية إلى مقام ممتاز ..

أما صالون (ميّ) .. فقد كان ديموقراطيًا .. أو قل أنه كان مفتوحًا .. لا يرد عنه الذين لم يبلغوا المقام الممتاز .. فى الحياة المصرية .. وربما كانوا يدعون إليه .. وربما كانوا يستدرجون استدراجًا .. فيلقون .. ويتعرفون إلى أصحاب المنزلة الممتازة .. ويكون لهذا .. أثره فى تثقيفهم وتنمية عقولهم .. وترقيق أذواقهم .. » .

ويسترسل الدكتو طه حسين :

« ولقد كانت (ميّ) مولعة بالغناء .. وكانت تغنى .. وما أكثر الليالى التى انصرف فيها الزائرون جميعًا .. ولم يبق منهم إلا الأستاذ (لطفى السيد) .. و (محمد حسن المرصفى) .. وأنا .. وفى ذلك الوقت .. كانت (ميّ) .. تفرغ لنا .. حرة سمحة .. فنسمع من حديثها .. ومن إنشائها .. ومن عزفها .. ومن غنائها ..

ويظهر أننى لن أنسى صورة (ميّ) حين تغنينا .. أغنية لبنانية مشهورة «يا حنينة» وتغنينا فى اللغات المختلفة .. وفى اللهجات العربية المختلفة أيضًا ..

★ ★ ★

هذه هى أسطورة (ميّ) وهذه هى حقيقتها .. وليس أجمل من الأسطورة .. إلا الحقيقة .. ولا أجمل من الحقيقة .. إلا الأسطورة .. فقد كانت (ميّ) .. أديبة .. خلقت من الآثار الأدبية ما يكفل لها الخلود فى تاريخ الأدب العربى .. وما يكفل لها البقاء .. فى عالم المحبين .. والشهداء ..

فإن حبها لـ (جبران) .. خلدها فى دنيا الحب العفيف وكان حبها .. هو سعادتها .. وهو شقاؤها .. هو حياتها .. وهو فنها .. فقد وجدت بين رسائل (ميّ) .. لـ (جبران) .. صورته .. وتحتها كتبت بخط يدها : «هذا سبب علتى وشقائى .. من زمن طويل » .

★ ★ ★

وكانت (ميّ) تنادى .. وتنادى .. «**أين وطنى**» !

« ولدت فى بلد .. وأبى من بلد .. وأمى من بلد .. وسكنى فى بلد .. وأشباح نفسى .. تتنقل من بلد إلى بلد .. فلأى هذه البلدان أنتمى .. وعن أى البلدان أدافع » ..؟

وكان المرقد الأخير لـ (ميّ زيادة) بعد فجيعتها وانتفاضها .. مما أصابها فى حياتها .. منذ عام ١٩٣٥ .. فى ثرى القاهرة التى أحبتها .. وضمتها فى ترابها .. عام ١٩٤١ ..

فهل يحن الرفات إلى الرفات .. وتجهش العظام إلى العظام .. (كما قال المصرى) .. ليجتمع الحبيبان .. فى أرض (جبران) .. الذى فرقت بينه وبين (مىّ) «الحياة» .. ليلتقيا بعد الوفاة ..

★ ★ ★

لقد كانت (مىّ) تنحت لحبها .. تمثالاً .. وكونت صورة لمحبوبها بعد أن نسجت له حبها أيامًا .. وليالى .. حتى وجدته فى (جبران خليل جبران) .. وسكبت كل عواطفها على الحبيب البعيد .. الذى كوّنه الخيال .. قبل أن تجده فى الوجود .. فكانت مثل ربة .. من ربات الأساطير .. التى هامت فى الدنيا وصعدت حتى قمة الأوليمب .. وهى تستنشق ريح الآلهة .. وتطالبهم بمعشوقها الذى لم يخلق بعد ..

وكان إلهامًا غيبيًا ناداها بأن تقدم على صداقة هذا الأديب البعيد الذى لم تكن تدرى .. بأن القدر قد نسج شباكه .. ليرميها فيها .. رهن حب ضائع .. وأمل شرير .

لقد كتب (جبران) يقول لها :

« هل تعلمين يا صديقتى .. بأننى كنت أقول لذاتى .. هناك فى مشارق الأرض .. (صبية) ليست كالصبايا .. قد دخلت الهيكل قبل ولادتها .. ووقفت فى قدس الأقداس .. فعرفت السر العلوى .. الذى اتخذه الجبابرة .. ثم اتخذت بلادى .. بلاذا لها .. وقومى .. قومًا لها ..

هل تعلمين .. بأننى كنت أهمس هذه الأنشودة .. فى أذن خيالى .. كلما وردت على رسالة منك » ..

★ ★ ★

لقد تعلق (جبران) .. بـ (مىّ) .. تعلقًا روحيًا وأحب .. روحها .. وأدبها .. و (مىّ) .. على البعد تناديه :

« سأدعوك قومى .. وعشيرتى ..
سأدعوك .. أخى .. وصديقى ..
وسأطلعك على ضعفى .. واحتياجى ..
وسأبتسم فى المرآة ابتسامتك ..
وسأستمع إلى جميع الأصوات .. علّى أعثر على لهجة صوتك .

فى حضورك .. سأتحول عنك .. لأفكر فيك .. سأتصورك عليلاً .. لأشفيك .. مصابًا لأعزيك ..
مطرودًا .. مرذولاً .. لأكون لك وطنًا وأهل وطن ..

★ ★ ★

آه منك يا (مىّ) .. وآه لك ..
وآه من حب .. لم يشفه .. إلا الموت .

★ ★ ★

من كتابات .. (مَيّ زيادة)

من كتابات .. (مىّ زيادة)

من كتابها : (غاية الحياة)

« ما أعظم الحب وأشرفه .. أيتها السيدات .. فى القلب المتبصر الحكيم .. ! هو أقدر عامل ينهض بالانسانية .. مسهلا طريقها .. مخففًا أثقالها .. خالقًا من ابنائها الأبطال والجبابرة ..

وأجمل الأرواح .. وأكبر القلوب .. وأنبل النفوس .. إنما هى تلك التى يظل فيها نهر الحب .. دائم الفيضان ، وتظل تبعث شعاع شمسها الداخلية .. الى ماوراء الفرد .. والبيت والوطن .. فتمتد على كل شىء ، وتضىء كل شىء .. الذى يحب كثيرًا .. يفهم كثيرًا .. لأن الحب .. أستاذ ساحر .. نتعلم منه بسرعة .. ويفتح لنا رحب الآفاق .. يهيم فيها صوته المحىّ .. الذى لاتسكنه أصوات الأفراح .. والأحزان ..! » .

من كتابها : (ظلمات وأشعة)

(بكاء الطفل) :

صغيرك يناديك .. فلماذا لاتجيبين .. يا أم الصغير .. لست بالعليلة .. لأنى رأيتك منذ حين .. تميسين .. بقدك تحت قبعتك .. والجواهر تطوق العنق منك .. أنت صحيحة الجسم .. فلماذا لاتسرعين ؟ ألاتحرقك دموع الطفل الذى لاترين .. ؟ ألايوجعك الشهيق الذى لاتسمعين .. ؟

عودى من نزهاتك الطويلة .. وزياراتك العديدة ، وأحاديثك السخيفة .. عودى واركعى أمام الصغير ، واستميحيه عفوًا .. !

لقد خلقت امرأة .. قبل أن تكونى حسناء .. وكيَّفتك الطبيعة أمًا .. قبل أن يجعلك الاجتماع زائرة .

تعالى اسجدى أمام السرير .. سرير الصغير ، اسجدى أمام هذا المهد الذى لعبت بين ستائره طفلة .. وحلمت به فتاة .. وانتظرته زوجة .. فما خجلت أن تهمليه أمًا ..

اسجدى أمام المهد .. فان المهد محجتك القصوى ، اسجدى أمام السرير .. ولاتدعى رب السرير .. يبكى .. لئلا تملأ قلبه مرارة الوحدة .. حتى إذا ماشب رجلًا .. تحولت المرارة .. كرهًا .. وصرامة .

اسجدى أمام السرير .. وناغى الصغير .. إن دموع الأطفال .. لأشد إيلامًا من .. دموع الرجال .

ومن كتاب : (كلمات وإشارات)

(النور .. النور .. نريد النور دوامًا .. وفى كل مكان .. !

نريد ارتفاع النفوس الى أوج تفهم عنده جمال الرجاء .. جمال الاشفاق .. جمال الواجب وجمال الخير .. نريد أن يفهم الرجل كرامة المرأة .. وأن تفهم المرأة .. كرامة الإنسانية .. نريد أن نعرف ذل العبودية .. كى ندرك عز الحرية .. نريد أن نكسر قيود الارغام .. كى نقيد ذواتنا .. اختيارًا بواجبات سامية .. نحن نعلم أن قيود الحرية أوفر من قيود الظلم .. عددًا وأدق نوعًا .. وأوجع وطأة .. ولكن .. فى قيود الظلم إذلالًا .. يسحق الشخصية هابطًا بالإنسان الى تحت درجة الإنسان .. وفى قيود الحرية عزة تعلو بالمرء الى قمة العظمة .. فتصيره إنسانًا كاملًا .. يقوى على النظر مليًا .. فى وجه الإنسانية المجاهدة ، قائلًا :

« أنا ابنك .. وقد صيرنى جهادى .. أهلًا لهذه البنوة المقدسة .. » .

ومن كتاب : (بين الجزر والمد)

فى مارس ١٩١٩

فليحى الوطن ..

فلتحى مصر ..

فليحى ذكر شهداء الحرية ..

يا للرعشة العجيبة تعرو النفس .. لنداء الحماس والاستبسال .. إن القلب عنده جازع .. والطرف دامع .. أمام مشاهد الفوز .. وراء نعوش الضحايا على السواء .

وكأنى خلال الألفاظ المتكررة .. فى الفضاء المجوف .. سمعت مصر الفتاة ، تقول :

لقد كنت (أيها القطر) مسرحًا خاليًا منذ أجل طويل .

مسرحًا .. زيناته .. هذه السماء الزرقاء .. وهذه الصحراء الصفراء .. وهذا الليل الناعم السحيق المغرى إلى تلمس الأسرار .. وهذه الشمس المشرقة أبدًا .. كمجد لاينقضى .. وهذه الهياكل .. وما انتصب فيها واضطجع .. والتوى .. وهذه التماثيل الشواخص للذين عاشوا .. ولن يموتوا .. من آلهتى .. وعظمائى .

ومن : (سوائح فتاة)

(عام سعيد)

« إن المحزون أحق الناس بالتعزية والسلوى .. لسمعه .. يجب أن تهمس الموسيقى بأعذب الألحان .. وعليه أن يكثر .. من التنزه .. لاينسى حزنه .. فالحزن مهذب .. لامثيل له .. فى نفس تحسن استرشاده .. وإنما ليذكر أن فى الحياة أمورًا .. أخرى غير الحزن .. والقنوط .

أحيى الذين يبكون بعيونهم .. وأولئك الذين يبكون بقلوبهم ..

أحيى كل حزين .. وكل منفرد .. وكل بائس .. وكل كئيب .

أحيى كلًا منهم متمنية له عامًا مقبلًا .. أقل حزنًا .. وأوفر هناء من العام المنصرم .. نعم .. للحزين وحده .. يجب أن يقال » ..

(عام سعيد)

★ ★ ★

وفى كتابها : (الصحائف) ..

تتكلم (ميّ) عن كتاب (جبران) المواكب :
فتقول فى نقد نشر بمجلة الهلال فى يوليه ١٩١٩ :

اقترحت على مجلة (الهلال) كتابة فصل عن (المواكب) .. وإنى لأجد مشقة فى تلبية كل اقتراح .. لأنه يذكرنى نوعًا بالفروض المدرسية .. التى يقيد التلاميذ بموضوعاتها المعينة .. وإن لم يكونوا بالأفكار وبأسلوب إيرادها .. مقيدين .. !

ومؤلف (المواكب) .. من الكتّاب الذين أفضل على البحث فى مواهبهم .. الوقوف على رأى الغير فيهم .. مؤثرة على هذا .. وذاك .. تصفح ماتخطه أقلامهم .. ثم أن (المواكب) .. مراحل نفسية .. استقرت صورها .. فى منظوم .. ومرسوم .. فتقدير المنظوم .. يقتضى حكم الشعراء واللغويين .. وإيفاء المرسوم حقه .. لا تطلب إلا جدارة المصورين .. فأى المواقف أقف إزاء هؤلاء .. واولئك .. ؟ إن منتهى .. ما فى مقدورى .. لا يتعدى الاغتباط بالنظر الى المعانى .. والى كيفية التصرف بها .. كأحد غواة الفن « Amateur » .. وعلى أن هذا النظر .. البسيط .. لا يتفق مع نظر الآخرين .. إلا الى حد .. يصبح عنده مخالفًا .. لرأى كل من عرفوا (جبران خليل جبران) . مفكرًا .. وكأنى بهؤلاء .. قد أقاموا عنهم نائبًا ينطق بلسانهم ..

فى شخص .. (نسيب أفندى عريضة) .. الذى وضع (للمواكب) مقدمة .. دلت على ما عنده .. من فكر دقيق وفؤاد طروب .

(فنسيب أفندى) .. يخبرنا بأن مؤلف المواكب .. كان متمردًا فى كل حياته الكتابية .. « يعرف من ذلك .. من طالع كتبه .. وأهمها (الأرواح المتمردة) و (الأجنحة المتكسرة) فهو يقف .. وأبطاله .. وبطلاته .. متمردين .. لا على عدو ظاهر حقير .. بل على الحياة نفسها » ..

ولم أفهم جيدًا .. ماذا يقصد بالتمرد .. (على الحياة نفسها) وأى حياة هى (نفس الحياة) فى نظر صاحب المقدمة . أحياة المدنية .. التى يعبدها .. (جبران أفندى) .. وإن أزعجه ما فيها من سخافة .. وهو لا يشبعها هجوًا وتقريعًا .. إلا لأنه يعبدها .. !

أم حياة الطبيعة التى يؤلهها هذا اللبنانى الذى جعل وادى قاديشا فى نفسه اندفاع مياهه .. وجلال الغابة التاريخية القائمة فى جواره .

سلّمت بتمرد (الأرواح المتمردة) .. ولكن .. أليس جوهر (الأجنحة المكسورة) امتثالا ..

هناك يمتثل صديق (سلمى) بلا شكوى .. ويمتثل أبوها بلا شبه شكوى .. وتمتثل هى بشكوى .. لأغنى عنها .. لإيجاد العامل المفجع فى الرواية .. أقول (الرواية) .. وأعنى (القصيدة) لأن (الأجنحة المتكسرة) قصيدة منثورة .. أمتمرد بطل الرواية الذى تنزع منه (سلمى) .. فلا يعترض .. ولا يحتج ..

ثم يكتب بكل بساطة :

وهكذا قبض القدر على (سلمى) .. وقادها عبدة ذليلة .. فى مواكب النساء الشرقيات التاعسات .. وبعد عقد الخطبة .. الذى لا يحضره القارئ .. ولكنه يشعر بأنه قد تم .. يقول البطل :

(فى نهاية الاسبوع) وقد سكرت نفسى بخمرة عواطفى سرت مساء الى منزل (سلمى) .. أمتمرد هذا الذى لاتكاد تقرأ له فصلا .. إلا وتعثر على ذكر القضاء والقدر .. فتجد لهما فى نظره .. يدًا لا تغالب .. وحكمًا لا مرد له .. هذا القائل بالتناسخ .. أى بالنشوء التدريجى .. والتطور المحتم .. خلال أعمار متتابعات .. يضم .. أنه يعتنق نظرية التناسخ .. ليس باقتناع الفيلسوف المتمذهب ، بل بعاطفة روائية تبسط له مسرح الانفعالات والأهواء . إلى أقاصى الدهور والأجيال .. بدلا من أن تقتصر على عمر واحد .. وأعوام بشرية محدودة .. وقد أجال فكره .. وقلمه .. فى هذا المضمار .. حينما كتب .. (رماد الأجيال .. والنار الخالدة) .. و (الشاعر البعلبكى) وغير ذلك .. والقول بالتناسخ .. ولو على هذه الكيفية الروائية .. ينفى التمرد .. لأنه مضمر فيه التسليم بتقييد المعلول بعلته .. وبرجوع كل حدث الى سبب قديم غائر فى الأعمار السحيقة .. ألا .. إنما ذلك .. (الخضوع القصى) .

كلمة (خضوع) سيضحك منها غير واحد .. ولكن هل رأيت رمز الحرية .. (أو رمز الرجل الذى يظن نفسه حرًا) فى المواكب .. باسطًا جناحيه .. وقد مدّ ذراعيه فرحًا .. متثبتًا من حريته .. بينما تظل قدماه مغلولتين بقيد فرد .. تعددت منه العقد .

وانطلقت النزعات والميول .. تشد بريش جناحيه إلى الأرض .. ؟ أرأيت الروح الجزئية مسارعة عند الموت إلى حضن الروح الكلية الشاملة ؟ فتستقبلها هذه بهدوء النظام الذى لايتغير .. ولايتحول .. ألم تقرأ آخر كلمة من كتاب (المجنون) وهى هذه .. (لماذا أنا هنا) ؟؟ ألم تقف على الأبيات الخاتمة (المواكب) :

العيش فى الغاب والأيام لو نظمت
فى قبضتى لغدت فى الغاب تنتشر
لكن هو الدهر فى نفسى له أرب
فكلما رمت غابًا قام يعتذر
وللتقادير سبل لاتغيرها ..
والناس فى عجزهم عن قصدهم قصروا

أتذكر السطور الأخيرة من (العاصفة) بعد حديثه مع (يوسف الفخرى) :

(نعم .. إن اليقظة الروحية أخلق شىء بالإنسان بل هى الغرض من الوجود) .. ؟

ولكن .. أليست المدنية مما فيها من التلبس والأشكال .. من دواعى اليقظة الروحية .. ؟ وكيف يا ترى تستطيع إنكار أمر موجود .. ونفس وجوده .. دليل على إثبات صلاحيته .. ؟ قد تكون المدنية عرضًا زائلًا .. ولكن الناموس الأبدى قد جعل الأعراض سلمًا تنتهى درجاته بالجوهر المطلق .

حسن جدًا ..

إذًا نحن أمام رجل متمرد على أنظمة البشر ومن جهة أخرى .. نراه يدافع عنها .. مفسرًا ما فيها من لبس وإشكال .. مقررًا أنها أعراض ضرورية للسير نحو الجوهر المطلق .. وهو واثق بذلك الى حد .. الارتياب فى زوال هذه المدنية .. فيقول :

(قد تكون المدنية الحاضرة .. عرضًا زائلًا) .

إنها عرض زائل .. بلا (قد) وبلاريب .. لأن كل مقبل .. يسير الى الإدبار .. وكل صرح يدركه الخراب ليشاد غيره .. على أنقاضه .. وكل مدنية تنهار .. وتتلاشى لتقوم مقامها .. مدنية جديدة .. (قد) (لو) (هل) (لكن) (لماذا) أهذه هى الكلمات التى ينصب فيها غيظ المتمردين ..

إنى أراها على كل حال .. متفقة تمام الاتفاق مع قول بطل (الأجنحة المتكسرة) عند ذكر الفراق الأخير .. (أخير فى الرواية) ..

(وكم مرة .. فكرت منذ تلك الليلة .. الى هذه الساعة .. بالنواميس النفسية التى جعلت سلمى تختار الموت .. بدلًا من الحياة .. وكم مرة وضعت نبالة التضحية بجانب سعادة المتمردين .. لأرى أيهما أجل وأجمل ..) .

لنقفن هنيهة عند (سعادة المتمردين) فهى نقطة جوهرية .. هو متمرد التمرد اللازم للشعور بتلك (السعادة) المفاجئة .. القائضة على النفس إحساسًا جديدًا .. وتأثيرًا لم تختبره من ذى قبل .. وهزة عجيبة تنبسط لها جوانب الكيان .. هو أليف الحماسة مهبط الوحى .. التى تطلب أبدًا تحريضًا حديثًا .. يمكنها من إبداع أساليب مجهولة .. وكما تتجاوب الأصوات والأنغام .. وتأتلف الألوان والعطور فى هيكل الطبيعة كذلك هى فى هيكل الإنسان .. ولكنها لا تفطن لها إلا الأعصاب التى دوزنها التوتر واليقظة أعصاب الشعراء والفنانين .. لاسيما إذا كانوا من الرمزيين .. و (جبران أفندى) .. مع ما يرمى اليه دومًا .. من إصلاح محسوس .. ومع ما يبقى عليه من الحصافة والرزانة .. حتى فى أوسع شواردة الشعرية .. كثيرًا ما تراه فى حالة الانجذاب .. لا يدرى .. أهو يستنشق الألحان .. أو يسمع الألوان .. أو يرقد على حزمة من متجمعات الأشعة .. فينشد :

هل تحممت بعطر .. وتنشقت بنور وشربت الفجر خمرًا .. فى كؤوس من أثير ..

فكيف لا يبحث مثل هذا المزاج عن خبرات غير مألوفة .. وأى شىء أطرب للفنان من الضرب على اليد القوية .. التى سنت قوانين الاجتماع اصطلاحاته .. لا سيما إذا قاومت إحدى رغباته .. أو قاسى بسببها العذاب يومًا .. هل تألم مؤلف « المواكب » من تلك القيود .. أنه تألم من بعضها بلا شك .. بفكره .. وبقلبه .. وبكبريائه .. تألم شديدًا حتى بلغ الدرجة الابتدائية من سلم الحكمة .. حيث يتعلم المرء .. الجرأة .. والخروج على ما يعذبه ..!

ولكن .. هذه القيود .. ضرورية له .. ميدانًا تبرز فيه قوته .. ويمرن عليها مجهوداته .. فهو لا يبدلها بألف حرية معًا .. أنه فى حاجة إلى ما تقدمه إليه من ضغط ومقاومة يصيبان منه خفايا النفس .. فينبثق فى جوانبها .. ينبوع الوحى والإلهام ..

★ ★ ★

إن الاثنينية .. التى تجدها اليوم فى « المواكب » كأنما شخصان اثنان .. يتحدثان .. متعارضين .. شيخ .. وفتى .. يقول « نسيب أفندى عريضة » .

وقد جاء (جبران أفندى) بمثلها فى « العاصفة » .. وما هى إلا تعدد الوجدانيات فى جميع البشر .. فإن الشخص الواحد يتكلم بلهجات متباينات فى أحوال متشابهة .. ومن ذا الذى لم يمتحن هذا الأمر فى نفسه .. فالشخصية التى اكتسبها مسير (المواكب) .. من الاجتماع .. تلك الشخصية التى تقيدها الشواغل .. والأطماع .. لقيود لا تريد التخلص منهـا .. لاهتمامها بما ترتب عليها من النتائج .. تراقب نفسها بنفسها ..

وتنظر إلى أحوال العالم .. محاسبة منتقدة .. فإذا ما أرادت تدوين ما تعلم .. وما هى مختبرة .. استعارت من (المواكب) الرانية الواسعة .. البحر الذى يتفق قرارها البعيد .. مع صوت الاختبار الجدى .. على أن لهجة هذا الوجدان تناقض نفسها أحيانًا .. فآنًا تنتقد .. وآونة تقرر ما يحس عندها .. ألا يخيل إليك أن يوسف الفخرى .. يتكلم فى هذه الأبيات الدالة على حب الحياة السامية .. حياة العزلة والانفراد .. حياة كل شاعر .. وكل مفكر صميم :

فان رأيت أخا الأحلام منفردًا
عن قومه .. وهو منبوذ ومحتقر
فهو النبى .. وبرد الغدر يحجبه
عن أمة برداء الأمس تأتزر
وهو الغريب عن الدنيا وساكنها
وهو المجاهر لام الناس .. أم عذروا
وهو الشديد .. وإن أبدى ملاينة
وهو البعيد .. تدانى الناس .. أم هجروا

وعندما يغوص فى تلك الحياة العميقة المكتظة بطواف سوانحه .. وخيالات إبداعه .. فيشعر كم هو عبد لها .. إذ ذاك يهتف :

والحر فى الأرض يبنى من منازعه
سجنًا له .. فهو لا يدرى .. فيؤتسر
وهو الطليق .. ولكن فى تسرعه
حق إلى أوج مجد خالد .. صغر

الحمد لله الذى أنعم على أهل المجد والشهرة ..؟ بعقل يدرك بطلان المجد والشهرة ..؟ ما هو المجد ؟ إن لم يكن تلك اللحظة التى تصرف فى إتقان العمل .. وهو آلة الخلود ..؟ يخيل أن (جبران أفندى) يدرك ذلك .. وأن إتقان العمل .. يخلق فيه نشوة تدفعه الى الكلام .. كالمعرى ساعة يقول :

فالناس إن شربوا .. سرّوا كأنهم
رهن الهوى .. وعلى التخدير قد فطروا
فـذا يعـربد إن صـلى .. وذاك إذا
أثـرى .. وذلك بالأحـلام يختمـر
فالأرض خمارة .. والدهر صاحبها
وليس يرضى بها .. غير اللانى سكروا

نشوة الأحلام .. نشوة الوحى .. إن هذا الفنان ليستخدم كل شىء للحصول عليها .. يستخدم حتى أشرف العواطف .. وأرفعها .. حيث يقول :

والحب فى الروح لا فى الجسم نعرفه
كالخمر للوحى .. لا للسكر ينعصر

ومانشوة الوحى .. ونشوة العاطفة .. ومجد الفكر .. والعمل المتقن .. إلا سبل مؤدية الى تلك الكعبة التى برحت مابرحت الإنسانية سائرة نحوها .. منذ فجر الوجود ..

والتى يحن إليها الشاعر .. ويحسن التعبير عنها .. أكثر من غيره .. ألا وهى السعادة .. هو يحدق فى موكب السعادة حينًا .. فتعود اليه ذكرى كل ما حسبه من سعادة فى الماضى .. فيقلب شفته لما أبقت له من مرارة وملل .. ويرسل هذه الحكمة الرائعة :

وما السعادة فى الدنيا .. سوى شبح
يرجى .. فإن صار جسمًا .. مله البشر
لم يسعد النـاس .. إلا فى تشوقهـم
إلى المنيع .. فان صاروا به .. فتروا

ولكن .. فتى الغاب .. (واقف بالمرصاد) .. وما ألطف استعماله .. موسيقى الموشح الخفيف لمعارضة وجدان الخبرة .. وسوء الظن .. وكثيرًا مايجىء كلامه ضحكًا من الاستهزاء .. وتهكمًا على التهكم .. فيجيب :

إنما العيش رجاء .. إحدى هاتيك العلل ..

فى (المواكب) .. كما فى (المجنون) .. أكاد أتبين تأثير (نيتشة) .. وإن كانت بسمة التهكم الفنى الدقيق .. التى نراها عند (جبران أفندى) .. لن تشبه أبدًا .. ضحكة نيتشة ذات الجلبة الضخمة المزعجة .. إن الشاعر السورى .. فنان فى كل شىء .. ونظرة واحدة الى كتاب (المواكب) .. تكفى لتعرّف ما عنده من زوق بسيط .. أنيق .. ولا تقيم المرارة لديه طويلًا .. لأنه يعود إلى ذكر الطبيعة .. وحبها .. وينشد مطربًا حزنه .. ولهفه بغنيةً عذبةً :

ليس حزن النفس إلا .. ظل وهم لايدوم
وغيوم النفس تبدو .. من ثناياها النجوم ..

وقد ترتفع أحيانًا الى أعلى ذرى التأمل .. فنحسب الإمام الغزالى .. متكلمًا :

وغاية الروح .. طى الروح قد خفيت
قلا المظاهر .. تبديها .. ولا الصور
فماطوت شمأل .. أذيال عاقلة
إلامر بها الشرقى .. فتنشو

فيجيبه فتى الغاب .. بمايدل على وحدة الوجود :

لم أجد فى الغاب فرقًا
بين نفس .. وجسد
فالهوا .. ماء تهادى
والندى .. ماء ركد
والشذا زهر تمادى
والثرى .. زهر جمد
وظلال الحور .. حور
ظن ليلا .. فرقد
أعطنى الناى وغنى
فالغنا .. جسم وروح
وأنين الناى أبقى
من غبوق .. وصبوح

ولايفتأ المرء يسائل نفسه .. ماهذا الناى الذى يبقى بعد فناء كل شىء .. وأنينه (سر الخلود) أهو أداة الفن ريشة كانت أو قلمًا .. أووترًا .. أهو الجاذبية سر تعارف الأكوان .. ؟ أهو نظام الاستمرار الدائم .. مع مايتخلله من تحول وانشعاب ؟ أم هو الحياة كل الحياة .. ؟ لست أعلم .. ما إذا كان ذلك صحيحًا واضحًا فى ضمير الشاعر .. وهل هو يعنى بالناى .. شيئًا معينًا .. ؟ ولكن إن غمض علينا هذا المعنى .. فإن كل معنى فى صوره الأخاذة .. جلىّ .. وكلا منها حكاية خاطرة .. وقصيدة رمزية .. رسمت بريشة أستاذ ماهر .. جمع بين بداهة الشرق .. وصناعة الغرب .. وإزاء رسم الثالوث الهندى .. كما إزاء صورة (العزم) التى رسمت بيد جريئة .. لست أدرى .. لماذا ينتابنى ذكر بعض اللوحات الخالدة فى تاريخ الفن .. فأتهيب شاعرة .. بأن (جبران) الكاتب .. ليس إلا نصف (جبران) فقط .. اننى فى كل القليل الذى رأيته من رسومه كما فى بعض الكثير الذى قرأته من كتاباته .. أستشف من وراء الظواهر طبيعته شغوفًا بالاستسلام .. إن (جبران خليل جبران) .. المتمرد .. من أخلص أتباع القدرية والجبرية .. وهو ينزع إليهما .. بقوة .. أشد من الفكر .. والإرادة .. أعنى قوة البداهة الشرقية .. والوراثة الشرقية .

★ ★ ★

فلهذه الأسباب :

وحيث أن جميع القراء .. يعترضون على هذا البيان .. وحيث أنهم يقولون أن مابسطته ليس إلاصنفًا من صنوف المنطق النسائى المفعم بالأغاليط والمتناقضات .

وحيث أن كل ماعندى .. من هذا النوع ..

فقد حكمت علىّ محكمة النقض والإبرام .. (من دولة الآداب) .. بالاعتذار الى (الهلال) .. عن كتابة بحث فى (المواكب) .

وقد اعتذرت ..

ولكنى أود أن أضيف مغالطة أخرى .. وهى هذه :

(أعتقد أن ذاتية الكاتب .. لم تدرك بعد استعدادها الأقصى .. ولم تقف الى الآن .. على ذروة اقتدارها سواء فى التصوير .. والكتابة .. مازال (جبران أفندى خليل جبران) .. متسلقًا كتف الجبل الذى قيدته الأقدار بالتصعد عليه .. وسيتابع الصعود متمردًا .. مادام كلفًا بهذا النعت .. وراء ستار الهجو .. والتهكم .. بالرموز والأمثال .. ولكنه سيصل يومًا إلى القمة فنسمع منه عندئذ .. أجمل أنغامه .. ونلمح أسمى هيئة من نفسه .. الغنية .. السنية .. التى تسطع فى أرجائها .. الأضواء وترعى فى جوانبها الأظلال ..

قلت (الأظلال) .. وأعنى تلك الأظلال .. التى تبدو من ثناياها النجوم .. كما يبدو معنى الامتثال والاستسلام .. من خلال ضجيج التمرد .. والعصيان ..

من روايات .. (مَىّ زيادة) المترجمة

ومن روايتها المترجمة : (ابتسامات ودموع) .. أو .. (الحب الألمانى) : للكاتب ف، مكس مولر :

الحياة الدفينة :

النور يعلو ويغمر حروبنا الكلامية .. أنظرى .. ها ان عينى تراودها الدموع .. وأشعر بكآبة مبهمة تلتف حولى وتمتد .. أجل .. نحن نعلم أننا نستطيع أن نمزح .. نعلم .. نعلم أننا نستطيع أن نبتسم .. ولكن .. فى مهجتى حرقة .. لاتلطفها كلماتك الرقيقة .. ولا تسكنها منك البسمات ..

أعطينى يدك .. وأصمتى قليلاً .. ولتستقر على عينى نظرة عينيك الصافيتين .. لأقرأ فيهما .. يامحبوبتى .. ايات روحك .

أواه .. هل يقصر الغرام دون فتح فؤادك .. واستماع صوتك ..

هل يحظر على المتيمين إظهار ما تكن قلوبهم ..

كنت أعرف الناس .. يظنون بأفكارهم .. لئلا يتلقاها الآخرون .. ببرود وجفاء .. كنت أعلم .. أنهم يحيون .. ويتحركون .. مخدوعين .. خادعين .. متنكرين .. مستترين .. غرباء عن البشر .. غرباء عن ذواتهم .. إنما القلب بعينه .. ينبض فى كل صدر بشرى .

ولكن .. نحن يامحبوبتى .. أيسكت ذلك النهى الوهمى قلوبنا ؟ وأصواتنا .. ؟ أيجب أن نخرس نحن أيضًا .. آه .. ما أسعدنا .. إذا حررنا قلبنا .. ولو لحظة .. وحللنا قيود الشفاه .. لأن السر الذى أطبقها .. وختم عليها .. تقدس فى أعماقنا .

وفى جزء آخر من الرواية وبتعبير وأسلوب (مى) :

من أشعار .. (وورد زورث)

انتشر السلام على الهضاب ..
وبين رءوس الأشجار الباسقات ..
لا أثر لهبوب النسيم ..
وصغار الطير .. نائمة فى الغاب ..
فانتظر قليلًا .. عما قريب ..
ترتاح أنت كذلك .

عندما نسمع .. أو نقرأ هذا .. ألانرى أشجار الصنوبر .. ووراءها المسافة الفيحاء .. انتشرت فيها راحة . لاتسطيع لاتسطيع الأرض أن تنيلنا إياها . فكرة .. اللانهاية .. تجدها أبدًا فى قصائد (وورد زورث) وذلك السر الكامن وراء الألفاظ .. والأسجاع .. والأوزان .. هو .. هو .. الذى يحرك القلب دون غيره ..

من ذا الذى فهم الجمال الأرضى .. أكثر من (مايكل أنجلو الطليانى ..) ولكن فهمه لأنه علم أنه انعكاس الجمال السماوى ألاتذكر موشحة لجيته (فيتوريا كولونا) :

قوة الوجه الجميل .. تدفعنى نحو السماء ..
ولا أرتاح على الأرض .. الى وجه سواه ..
وبه أحيا .. متعاليًا .. بين الأرواح المصطفاة ..
وهى موهبة .. قل أن يتمتع بها الإنسان الفانى .

ومن المبدع الذى أبدع صنعها ..
وبنعمته .. وبمساعدته .. أرفع إليه خواطرى ..
وأوقع على انسجام صنيعه .. أفكارى وأعمالى ..
لأحب بمرارة .. امرأة مليحة ..
وإن قصرت دون تحويل نظرى ..
عن عينيها الجميلتين .. المتألقتين ..
بنور يدلنى إلى سبيل الله ..
إن قصرت .. وأحرقنى اللهيب .. علمت ..
إن تلك النار .. النبيلة المتأججة فى قلبى ..
إنما هى انعكاس الشعاع السامى ..
الساطع أبدًا .. فى ديار المجد والخلود ..

★ ★ ★

ومن كتابها : (المساواة) تقول (مى) :

(من ذا الذى يخلصنى من قسوة التمايز) ميشيليه :

أما رأيت الثرى .. تنهب الأرض سيارته .. كأن السعد .. أقام من الأبهة والرواء .. هالة .. بينه وبين سواه .. وهناك فى الزواية .. يدب المعدم .. ويعتفى .. متأوها .. كأنه فى تمرغه حشرة خبيثة .. تأنف الأرض مسها .. وتمقت انعكاس ظلها ..

أو ما رأيت الحسناء .. ترتدى الثياب الفاخرة .. على أحدث هندام .. وفى عنقها .. ومعصميها .. جواهر .. توازى ثروة .. ونصور نعيمًا ..

أمار أيتها تمر رشيقة .. معطرة .. أمام امرأة .. رثة الثوب .. تحمل طفلاً .. هو آية ذلها فى الغد .. كما هى علة ذلّه اليوم .. والذباب يأكل ماقيها ما لاتستطيع إزالته .. لأنها فقيرة .. حتى من الماء الطهور .

قد تخفى مظاهر البؤس .. مالًا وعقارًا .. وقد لاتكون دلائل العز .. فخفخة .. واستهتار غرور .. على أن المشهدين .. يمثلان من سلم الكفاف .. أعلى الدرجات .. وأدنى الدركات .. وبينهما .. تتحاذى الرتب على اختلافها بما يلازم ذويها من عوز متنوع .. واحتياج لجوج .

إزاء هذين النقيضين .. حنّ الشعوريون الى أخوة الروح .. تبدو بين طبقات المجتمع .. وعمد المفكرون الى المقابلة والاستنتاج .. وقام المحرومون .. يصرون صريرًا وانبرى النظريون .. يعينون حقوق الناس على الناس .. ومثل الشاعر .. الحماسى .. دوره .. فأرسل (هاينى) .. زفرات .. كأنها المتفجرات هولًا .. وتحريضًا .. حيث هتف (ملعون هو الإله) إله السعداء .. ملعون هو الملك .. ملك الأغنياء .. وملعون هو الوطن .. المجازف ببنيه ..

وليس جميع هؤلاء .. ليسلّمون بأن شكايتهم تعارض نظم الطبيعة .. بل هم يتسلحون بالحجة والبرهان .. مشيرين إلى الشمس .. تسكب النور والحرارة على الأشرار .. والصالحين .. ويستشهدون بالهواء .. يسدى الحياة الى الحيوان والإنسان .. ولايكون على الجماد .. ضنينًا ..

ويذّلون الى الأرض .. تعتش فى حضنها المعادن .. وتكلأ المرعى .. لكل ذى نسمة يرتعى .. ويومئون الى منبسطات البحار .. تضم مختلف السمك .. والوحش المائى .. من كل فصيلة .. وحجم .. ولون .. ويذكرون اللحد .. يحوى الموت قاطبة .. على نمط واحد .. ليدفع بهم الى الانحلال .. فريسة .. والى التحول مادة .. فأذا اجزلت الطبيعة الهبات .. ودعت جميع بنيها الى امتصاص ثديها المدرار .. فأنّى للكبرياء أن تخلق التمايز .. والتفاضل .. وتجعل بين البشر فروقًا .. وسدودًا .. فتشل عضوًا .. لتقوى عضوًا .. وتحرم قومًا .. لتمتع قومًا ..

هم يتساءلون عما حلل هذا الجور المرهق .. ويصيحون بقوة انفعالاتهم .. واحتياجاتهم :

(المساوة .. المساوة) ..

إن لم يتمرد العبيد .. بهذه الكلمة .. وبمعناها العصرى فإنما التوق المبهم .. إليها هو الذى اضطرهم الى تكسير القيود .. والخروج على سادتهم مرة بعد أخرى .. فى تعاقب العصور القديمة .. حتى باتت أثينا وروما .. من أولئك الثورات فى خطر عظيم .

هى التى دمدمت فى نفوس عشرين ألفًا من العبيد أن يفزعوا إلى الإسبارطيين .. يوم احتلوا جانبًا من بلاد الإغريق فى حرب البيلوبونزية طمعًا فى الحصول (إن لم يكن) على تحرير تام فعلى تحسين مبين .

وباسمها .. اعتصمت المرأة فنهضت من تحت قدم السيد الساحقة .. ووقفت عالية الجبين إزاء مسالك الحياة وأعمالها .

ما هى المساواة ..؟ وأين هى ..؟ وهل هى ممكنة .. هذا ما أرغب فى استجلائه .. دون اندفاع .. ولا تحيز .. بل بإخلاص من شكلت من جميع قواها النفسية والإدراكية .. يستعرضون خلاصة ماتقول الطبيعة .. والعلم والتاريخ .. ليثبتوا .. حكمًا .. يرونه صادقًا عادلًا .

★ ★ ★

وفى روايتها المؤلفة : (رجوع الموجة) :

(نعم .. إن المحبين .. لايحتاجون الى كثرة الكلام .. (وقد تنطق العينان .. والفم ساكت) .

أما مرغريت .. فكانت غائبة عن رشدها .. لاتسمع ولا تفهم مايقال لها .. وحتى ذارفة الدموع .. باكية .. نائمة .. راثية فلذة كبدها .. (إيفون) بألفاظ تفتت الأكباد .. وتلين الصخر .. الأصم .

مخاطبة ايفون كأنها فى عالم الأحياء بين يديها .. ثم تنظر حينًا إلى الأزهار التى على المدفن . وتلمسها بأناملها .. ثم تقبل بحرقة شديدة .. تلك التى أتى بها ألبير .. كأنها ذخيرة منه ..

فعلى هذا الضريح .. تذكرت مرغريت فى ذلك الوقت حبيبين .. لها .. تفديهما بروحها .. (ألبير وإيفون) ..

نعم .. إنها لم تحب أحدًا فى ماضى حياتها كما أحبتهما .. وقد بدا لها أن موت ألبير .. ولو كانت منفصلة عنه .. أشد عليها من موت (إيفون) .

(فيا أيها الدهر الخؤون الغدار .. لم جمعت قواك .. وبذلت جهدك فى تفريق شمل الأحباب .. وتشتيت الأصحاب .. لم هذا الجور أيها الزمان الظالم .. بل كيف يسوغ لك .. أيتها الطبيعة .. إصدار هذا الحكم المخالف كل عدالة .. على خط مستقيم .. بتشتيت هذه الأسرة الصغيرة .

وأما أنت .. أيها الحب الجبار .. ترى بأى عبارات أكلمك .. وبأى لسان أخاطبك .. بل أى ألفاظ أسوقها اليك .. لعمرى انك لأنت الملك العظيم الاقتدار .. أنت المستبد بالحكم على شعبك الكثير ..

لم أيها الحب .. لاتصد هجمات الحب عن عبادك .. وتمنع الإيذاء عن آلك .. والتابعين شرعك .. ومرادك .

لم لم تدفع إليها الحب .. عن هؤلاء الثلاثة .. نقمات غضب العالم .. والزمان .. والسماء .. والأرض .. والعناصر .. مع أنك أيها الحب .. على كل شىء قادر .. لعمرى إنه لم يكن من العدل .. أن تسمح للطبيعة والأحوال .. أن تكدر صفاء عيش من اتبعوا شريعتك . كيف يجوز أيها الحب .. أن تدع الموت .. والافتراق يدخلان بيوت من يعبدونك .. ويحافظون كل المحافظة على اتباع سننك ..

ظلت مرغريت جاثية .. زمنًا طويلًا .. وهى غائصة فى بحر من التأملات الحزينة .. لكنها تصورت على حين بغتة شخص (إيفون) .. منتصبًا أمامها .. فهتفت :

ابنتى المحبوبة .. هلمى الى داخل قلبى .. تعالى أقيمى فى حضن أمك الحزينة .. التى لا تنساك .. ولا يطيب لها عيش بعدك .. سلام عليك وألف تحية يا ابنتى .. التى أذوب حبًا لدى ذكر اسمك العذب المستحب .. سلام على عينيك المطبقتين .. حتى يوم النشور .. سلام على شفتيك الباردتين .. أين أنت الآن يا ولدى (إيفون) عند من تسكنين .. ومع مَنْ مِن الملائكة تلعبين ..

بل سلام على روحك الطاهرة التى لا شك إنها تنعم بذلك الفرح الدائم .. لكن أنى لجسمك المتنعم .. أن يحتمل السكنى مع الديدان .. ويطيق ظلمة القبور .. ؟ نعم .. نعم .. قد تلاشى جمالك واضمحل حسنك .. وذبل ورد خديك .. وأضحت أعضاؤك .. رممًا بالية .. وصرت أثرًا بعد عين .

فوا لوعتاه .. وواحسرتاه .. لم لا تسرع أيها الموت وتأخذنى إلى فلذة كبدى .. (إيفون) .. تعال .. تعال .. ولا تبطىء ..

★ ★ ★

وفى دراستها عن (عائشة تيمور) شاعرة الطليعة .

تقول : إن عواطف المرأة .. وتأثراتها .. شىء بشرى مشروع .. وبالمران .. تتعلم الاستسلام لطبيعتها النسائية .. والركون إليها .. فى الاهتداء الى التعبير .. بعد أن لجمت خوالجها قرونًا طوالًا .. والصيحة التى ترسلها الآن .. ستفتح فى إدراك البشر .. وفى آدابهم أفقًا جديدة .

أتيت هذا .. فى إيمان وهدوء .. دون تحيز ولا تعنت .

إنما نحن .. من الذات الإنسانية .. الواحدة .. الجهة المائلة .. إزاء جهة الرجل .. فنختبر إذًا بفطرتنا ما لا يستطيع الرجل أن يعرفه .. كما ان اختبارات حضرته تظل مغلقة علينا .. وإذا قدر للمرأة المصرية .. أن تلج باب الشعر والأدب .. وتمضى فى المسير فى ما وراء من فسيح المسافات .. كان مرجع الفضل الى التيمورية .. التى نشرت أول علم .. فى الجادة غير المطروقة .. وبكرت فى إرسال الزفرة الأولى .. أيام كانت تكتم الزفرات .. وكان إرسال الصوت فى عالم الأدب .. يحسب للمرأة .. عارًا وجريمة .. ويوم ينمو الأدب النسائى فى هذه البلاد فيجىء حافلًا بحياة فنية غنية .. ستظل أناشيد (عائشة) .. هذه الأناشيد الساذجة .. لذيذة .. محبوبة .. كترنيمة المهد .. القديمة .. التى همهمت لنا بها .. أمهات أمهاتنا .. شجية مطلوبة كشدو القصب القائل فى ظل النخيل .. إن وراء المشاغل والهموم .. يلبث القلب البشرى .. معذبًا .. يظمأ .. لا يرتوى .. مثقلًا بحنين لا يعرف الاكتفاء .. والنفاذ .

ومن شعر عائشة التيمورية الغزلى :

أشكو الغرام .. ويشتكى ..
جفن تعذب بالسهر ..
يا قلب .. حسبك ما جرى ..
أحرقت جسمى بالشرر ..
رام الحبيب لك الضنى ..
لم ذا .. وأنت له مقر ..
لكن تعذيب الهوى ..
ما للشجى .. من مفر ..

وقد يكون خير شعرها الغزلى .. وأصدقه .. فى القصائد التى قيلت خلال رمد عينيها .. وبعد الشفاء منه .. يوم عادت الى مشهد النور .. ورؤية وجوه الأحباب ..ومنه :

بكعبة الحسن .. إنسانًا أرى . فسلوا
عينى التى طالما ضلت من الغسق ..
وخبرونى ..أأنسانى صفا ودنا
لمستهام رماه البين بالأرق
حر التهابى .. ووجدى .. واحتراق دمى
يفيح وادى الغضا .. عما سواك خفى

وكانت عائشة التيمورية تتكلم بلهجة الرجل .. وذلك راجع طبعًا الى أمرين اثنين .. ذكرتهما قبلًا وهما :

أولًا : عادة الضغط على المرأة وإخراس صوتها .. فكان أيسر لها ان تتخذ لهجة الرجل المصرح له بما حظر عليها.

ثانيًا : لأنها كانت مقلدة .. فقد قلدت الرجل فى معانيه كما قلدته بداهة فى لهجته .. :

فكم أمسى بما ألقى حزينًا
وبين النوم .. معترك .. وبينى
أبيت .. ومؤنسى الخفاش ليلًا
وحالى معه .. شر الحالتين
روحى بقربك قد نالت من الأرب
ما ترتضيه .. فمرها فى الهوى .. تجب
فضع يمينك .. فضلًا .. فوق مهجتها
تكف بالكف ما عنته من وصب
لا تنكرن مزايا الحب أن له
فى الراحتين .. لراحات من التعب

وفى كتابها : (باحثة البادية) وهو دراسة نقدية

كانت عينا باحثة البادية مفعمتين ابتسامًا كثغرها .. ولكن .. إذا أمعن النظر فى أعماقها .. وجد بعد الغور .. والكآبة المقيمة وراء الابتسام .. بما يرى فى عينى المفكرين .. وفى عينى المزمعين على الرحيل العاجل .. أولئك الذين لا تطول حياتهم .. أكثر من زهور الربيع .. فيذهبون تاركين الجو .. حولهم معطرًا بعبير مآثرهم .

إن لباحثة البادية .. مركزًا فريدًا فى الحركة الفكرية عندنا .. بعد أن قام (قاسم أمين) يقول بتحرير المرأة .. وبإعطائها ما لها من حقوق أدبية واجتماعية .. قامت باحثة البادية تؤيد كلامه .. مظهرة أهلية المرأة وكرامتها .. ودرجة الارتقاء العليا .. التى يمكنها تسنمها .. قامت هذه المرأة العبقرية .. ابنة الرجل الكبير .. تدرس أحوال البيئة المصرية .. فكان لها من ذكائها الفطرى .. مرشد أمين .. ومن شعورها العميق .. منبه مخلص .. رأت حاجة قومها إلى الإصلاح فصاحت صيحة .. مازال يرن صداها .. وظلت تكتب وتخطب .. ناشدة الإصلاح .. وهى المرأة المسلمة الوحيدة التى فعلت ذلك .. فى وسط .. مازال رجعيًا فى ميوله .. بشجاعة وكفاءة .. وتفوق .. لم ينل منها شيئًا انتقاد الناقدين .. وتعنت المتحزبين ..

كانت شديدة الحب لقومها .. شديدة الغيرة على وطنها .. شديدة التألم لما تراه من علامات التأخر .. والانحطاط فى البيئة المصرية .. ومجموع هذه العواطف من حب .. وغيرة .. وألم .. كان يتخلل كل ما تكتبه .. كأنين متواصل .. ينقلب ساعة الوجع الشديد .. زئيرا وعويلا .. كذلك يتألم صاحب العقل .. والقلب الكبيرين .. كأنما هو يتألم عن أمة بأسرها .

★ ★ ★

لما زارتنا للمرة الأخيرة .. كانت ترافقها صويحبة لها .. فأخذت هذه تنفر على الصور .. وأنشدت الباحثة .. بصوتها الشجى .. هذين البيتين من الموشح الأندلسى المشهور :

جادك الغيث .. إذا الغيث همى
يازمان الوصل .. بالأندلس
لم يكن وصلك إلا حلما
فى الكرى .. أو خلسة المختلس

باحثة البادية .. تصلح كامرأة .. وقيل أن المرأة اكثر تشبثا بالماضى .. وقاسم أمين يصلح كرجل .. أى يرسل نظرة أبدا إلى الأمام .. هى تسير بتحفظ بين تشعب الأفكار الجديدة .. والآراء المستحدثة .. وكلما خطت خطوة التفتت إلى الوراء .. لتثبت من أنا تابعة السبيل .. الذى يربط الأمس بالغد ..

★ ★ ★

إلى الآنسة (مىّ)

إن علة آلامى وشقائى .. ومبعث آلامى .. إن قلبى يتصدع من أحوال هذا المجتمع الفاسد .

إذا أراد الرجل أن نحتجب .. احتجبنا .. وإذا صاح الآن .. يطلب سفورنا .. أسفرنا .. وإذا أراد تعلمنا فهل هو حسن النية فى كل ما يطلب منا .. ولأجلنا .. أم هو يريد بنا شرًا .. لاشك أنه أخطأ وأصاب فى تقرير حقنا من قبل ولاشك إنه يخطئ .. ويصيب فى تقرير حقوقنا الآن .

(باحثة البادية)

★ ★ ★

ومن كتابها : (وردة اليازجى)

نشأت وردة اليازجى فى أسرة .. يقوم على رأسها .. ذلك الأستاذ الكبير .. والدها .. الشيخ ناصيف .. الذى كان فى طليعة العاملين لإيقاظ الشرق الأدنى من غفوته .. وقد اقتفى اثره فى الفضل ولداه .. العالم اللغوى الشيخ ابراهيم والأديب الشاعر .. خليل اليازجيان .. فكانت هى باستعدادها الأدبى .. وتوقد جناتها .. جديرة بأن تكون ابنة هذا الوسط .. بالمعرفة والاجتهاد .. كما هى ابنته بالدم .. والقربى .

ولدت وردة اليازجى فى قرية (كفر شيما) من ساحل لبنان .. وانتقلت مع عائلتها طفلة الى بيروت .. حيث تعلمت فى مدارس الأمريكان الصغرى وتلقت على سيدة يهودية متنصرة .. مبادئ اللغة الفرنسية .. ثم عنى بها والدها .. فدرسها أصول اللغة فى كتبه .. وتوسم فيها .. استعداد للشعر .. فمرنها عليه إنه كان يراسلها نظمًا عند غيابه عن المدينة .. ويعهد إليها فى الرد على بعض مراسليه من الشعراء .

فقرضت الشعر فى الثالثة عشرة من عمرها .. وتعاطت التدريس مدة فى إحدى المدارس الأهلية .. وكانت فى بيت والديها .. تساعد على الاعتناء بتربية أخوانها وإخواتها الاثنى عشر .. وهى رابعتهم .. وظلت بعد زواجها .. ابنة وسطها .. وابنة يومها .. شرقية تلبس الطربوش .. وتأتزر عند الخروج من البيت .. وتشرب القهوة التركية على وقع نقير الماء المعطر فى قلب الشيشة الفارسية .. وتنتسب لأسرة أبيها .. على الطريقة العربية .

ومن دواوينها (حديقة الورد) الذى طبع أول مرة فى بيروت سنة ١٨٦٧ ـ أى بعد زواجها بعام واحد .. وأعيد طبعه بعد عشرين سنة .. ثم أعيد طبعه مرة ثالثة فى مطبعة هندية بمصر .. وكانت تضيف إلى كل طبعة جديدة خير ما نظمته فى تلك الفترة . حتى استقرت الطبعة الثالثة .. على نحو مائة صفحة .. من القطع الكبير ..

ومن أشعار السيدة وردة :

يا وردة الترك انى وردة العرب
فبيننا قد وجدنا أقرب النسب
أعطاك والدك الفن الذى اشتهرت
ألطافه بين أهل العلم والأدب

وكانت قد كتبت هذه الأبيات للشاعرة (وردة) ابنة نقولا الترك الشاعر .. !

رحل الحبيب .. وحسن صبرى قد رحل
فمتى يعود الى منازله الأول
وتضىء أرض .. أظلمت من بعده
وتقر عينى باللقا .. قبل الأجل

ومن الممكن ان تكون هذه الأبيات لصديقة .. لأن المجتمع كانت تقضى على المرأة بكتمان عواطفها .. حتى فى الشعر ..

ومثلها :

منى السلام .. على الذى هجر الحمى ..
الشـــوق زاد من البعـــاد تحسرًا
والنوم صار على العيون محرمًا
والصبر عيل لهجـــره .. ولبعـــده
والبدر غاب .. وقطرنا قد أظلمـــا
ياراحلًا .. أضحى فؤادى عنـــده
وبقيت من وجدى أراعى الأنجما
فمتى أفوز من الحبـــيب بنظـــرة
وتقر عينى بعدمـــا قطـــرت دمـــا
طال البعاد على الكئيب المرتجى
أن يجـــعل الله اللقـــاء .. مقدمـــا

★ ★ ★

(جُبران خليل جُبران) .. فى سطور

حياة (جبران خليل جبران)
مجـزأة الى ثلاث حلقـات :

الحلقة الأولى : وتشمل حياته منذ ترك وطنه .. (لبنان) إلى أميركا - وهو فيما يقارب الثانية عشرة من عمره .. حتى استقر فى نيويورك .. سنة ١٩١٢ .. وهو فى التاسعة والعشرين كرسام محترف .. وهى تنطوى على ١٧ سنة .. تقلبت عليه فيها .. أحداث مختلفة .. وقد كان أول مقر له فى أميركا .. (مدينة بوسطن) حيث اقام سنتين مع والدته وإخوته .. أخذ فيها يتعلم اللغة الانجليزية .. ثم بعثه ذووه إلى بيروت .. فبقى فيها خمس سنوات .. طالبا فى معاهدها .. عاد بعدها إلى (بوسطن) ..

ولم يلبث أن فجعه الدهر فيها .. بموت .. شقيقته .. ثم أخيه .. وأمه .. ولاتسل .. عما قاساه بسبب ذلك .. من ألم نفسى .. وضيق مادى .

بقى على هذا الحال .. بضع سنوات .. وكان قد أخذ يعالج فن الرسم .. ومن حسن حظه .. أن سيدة أمريكية .. محسنة أعجبت بموهبته .. فأرسلته على نفقتها الى باريس .. ليتقن هذا الفن .. وبعد أن اقام فى باريس ثلاث سنوات .. عاد إلى بوسطن .. ومنها انتقل الى نيويورك .. حيث أنشأ لنفسه مرسمًا .. محترفًا للتصوير اليدوى .

جبران خليل جبران

كانت هذه السنوات السبع عشر .. التى جعلناها الحلقة الأولى من حياته .. ملأى بالأشواك القلبية .. والهموم المادية .. وأولها .. فشله فى حب أول فتاة ملأت قلبه .. ثم مرارة نفسه .. لفقد ذويه .. وملازمة الفقر .. والعناء له .. فكان ذلك .. كافيًا أن يخرج من قلمه أمثال (عرائس المروج) (والأرواح المتمردة) .. والأجنحة المتكسرة .. ودمعة وابتسامة .. وكلها تنم على شقاء نفسى .. وتبرم من قسوة العالم .. ونقمة على ذوى السلطة .. مع شعور داخلى .. يضعفه عن المقاومة ..

الحلقة الثانية : وتمتد إلى السنة ١٩٢٠ .. ثمانى سنوات .. خرج فيها من هوة الحاجة .. وبدأ يشعر بقوة نفسه .. إزاء نفسه .. إزاء الحياة .. ولعل ما طالعه فى كتاب «نيتشة» (هكذا تكلم زرادشت) فقد أثر فى نفسه .. تأثيرًا .. ملأه بروح الاعتداد .. فغلب عليه الميل إلى التهكم بالناس والعبث بتقاليدهم .. وشرائعهم .. وصار همه أن يكون حفارًا لقبورهم .. هدامًا لما ألفوه فى حياتهم .. كما نرى فى هذا الحوار الخيالى .. بينه وبين شبح ظهر له .. يسأله الشبح : ما صناعتك .. فيجيب :

أنظم الشعر .. وأنثره .. ولى فى الحياة آراء .. أطرحها على الناس .. فيقول الشبح : هذه مهنة عتيقة مهجورة .. لا تنفع الناس .. ولا تضرهم .. فيسأله الشاعر : وماذا عسى أن أفعل بأيامى .. ولياليّ .. لأنفع الناس .. فيجيبه الشبح : اتخذ حفر القبور .. صناعة .. فتريح الأحياء .. من جثث الأموات المكردسة حول منازلهم ومحاكمهم .. ومعابدهم .

وذلك ما فعله (جبران) فى هذا الطور .. من حياته .. فأخرج للناس .. (العواصف) والمواكب .. والمواكب قصيدة تعكس آراءه فى الحياة .. وأما العواصف .. فكتاب .. يضم عدة فصول .. ومقالات .. وهو آخر ما نشره بالعربية .. وقد ظهر بعده .. عام ١٩٢٣ / كتاب آخر هو (البدائع .. والطرائف) .. ولكن جبران لم ينشره .. إذ هو مجموعة مقالات .. اختارها صاحب مكتبة العرب بمصر من مؤلفات سابقة .. كالعواصف .. ودمعة وابتسامة .. ومقالات أخرى .. لم يسبق نشرها فى كتاب ..

الحلقة الثالثة : وهى حقبة أدبه الإنجليزى .. وتنتهى بانتهاء حياته سنة ١٩٣١ .. فى هذه الحقبة .. أصبح جبران ـ ميسور الحال ـ ذائع الصيت .. يتذوقه لذة اليسر .. والشهرة .. ولعل ذلك .. كان السبب فى تخفيف ما كان يشعر به من عداوة للناس .. ومن اعتداد بالنفس .. يدفعه إلى التهكم بهم .. فأصبح متواضعًا .. لايرى الناس دونه .. ومن يقرأ مقاله (وعظتنى نفسى) .. يتضح له هذا التغير الداخلى فيه ..

وهكذا .. نراه فى السنوات العشر الأخيرة .. من حياته .. منصرفًا إلى التغنى بالحكمة الأزلية .. وتمجيد الحياة الإنسانية الصافية .. فى هذا الجو الروحى .. ظهر له من الكتب .. (النبى The Prophet) عام ١٩٢٣ ـ ورمل وزبد عام ١٩٢٦ ـ ويسوع ابن الإنسان عام ١٩٢٨ ـ والهة الأرض ١٩٣١ .. وغيرها .

أقوال (لجبران) :

ـ عندما تشكو مصابك لجارك .. تهبه جزءًا من قلبك فإن كان كبير النفس .. شكرك .. وإن كان صغيرها .. احتقرك ..

ـ أنا برىء من قوم يحسبون القحة شجاعة .. واللين جبانة .. وأنا برىء ممن يتوهم الثرثرة معرفة .. والصمت جهالة .. والتصنع فنًّا .

قد يكون فى استصعابنا الأمر .. أسهل السبل إليه .

★ ★ ★

من كتابات ..
(جُبران خليل جُبران)

من كتابات .. (جبران خليل جبران)

من كتابه (البدائع والطرائف) :

وعظتنى نفسى .. فعلمتنى حب ما يمقته الناس .. ومصافاة من يضاغنونه .. وأبانت لى .. أن الحب ليس بميزة فى المحب .. بل فى المحبوب .. وقبل أن تعظنى نفسى .. كان الحب فى .. خيطاً دقيقاً .. مشدوداً .. بين وتدين .. متقاربين .. أما الآن .. فقد تحول الى هالة أولها آخرها .. وآخرها أولها .. تحيط بكل كائن .. وتتوسع ببطء .. لتضم كل ما سيكون .

وعظتنى نفسى .. فعلمتنى أن أرى الجمال المحجوب .. بالشكل واللون .. والبشرة .. وأن أحدق متبصراً بما يعده الناس شناعة .. حتى يبدو لى حسنًا .. وقبل أن تعظنى نفسى .. كنت أرى الجمال .. شعلات مرتعشة بين أعمدة الدخان .. واضمحل .. فلم أعد أرى سوى ما يشتعل .

وعظتنى نفسى .. فعلمتنى الإصغاء إلى الأصوات التى لا تولدها الألسنة .. ولا تضج بها الحناجر .. وقبل أن تعظنى نفسى .. كنت كليل المسامع .. مريضها .

لا أعى سوى الجلبة والصياح .. أما الآن .. فقد صرت أتوجس بالسكينة .. فأسمع أجواقها منشدة أغانى الدهور .. مرتلة تسابيح الفضاء .. معلنة أسرار الغيب .

وعظتنى نفسى .. فعلمتنى أن أشرب مما لايعصر .. ولا يسكب .. بكؤوس لاتدفع بالأيدى .. ولا تلمس بالشفاة .. وقبل أن تعظنى نفسى .. كان عطشى شرارة ضئيلة فى رابية رماد .. أخمدها بعبة من الغدير .. أو برشفة من جرن المعصرة .. أما الآن فقد صار شوقى كأسى .. وغلتى شرابى .. ووحدتى نشوتى .. وأنا لا .. ولن أرتوى .. ولكن فى هذه الحرقة .. التى لاتنطفىء مسرة لاتزول .

★ ★ ★

وعظتنى نفسى .. فعلمتنى لمس مالم يتجسد ولم يتبلور وأفهمتنى أن المجسوس .. نصف المعقول .. وأن مانقبض عليه .. بعض مانرغب فيه .. وقبل أن تعظنى نفسى .. كنت أكتفى بالحار إن كنت باردًا .. والبارد إن كنت حارًا .. وبأحدهما إن كنت فاترًا .. أما الآن .. فقد انتثرت ملامسى المنكمشة .. وانقلبت ضبابًا .. دقيقًا .. يخترق كل ماظهر من الوجود .. ليمتزج بماخفى .

★ ★ ★

ومن كتابه : (عرائس المروج)

شعر بالحب القوى العظيم .. يشمل قلبه .. ويمتلك أنفاسه ذلك الحب .. الذى يبيح مكنونات النفس لانفس .. ويفصل بتفاعيله بين العقل .. وعالم المقاييس .. والكمية .. ذلك الحب الذى نسمعه متكلمًا .. عندما تخرس ألسنة الحياة .. وتراه منتصبًا كعمود النور عندما تحجب الظلمة كل الأشياء .. ذلك الحب .. ذلك الإله .. قد هبط فى تلك الساعة الهادئة .. على نفس (على الحسينى) وأيقظ فيه عواطف حلوة .. ومرة .. مثلما تستنبت الشمس الزهور بجانب الأشواك .

ولكن .. ما هذا الحب .. ومن أين أتى .. وماذا يريد من فتى رابض مع قطيعه مع تلك الهياكل الرميمة .. ما هذه الخمرة السائلة فى كبد .. لم تحركها قط .. لواحظ الصبايا .. وما هذه الأغنية السماوية المتموجة فى مسامع بدوى .. لم يطربه بعد شدو النساء ..؟

ما هذا الحب .. ومن أين أتى .. وماذا يريد من (على) المشغول عن العالم بأغنامه وشبابته .. هل هى نواة ألقتها محاسن بدوية بين أعشار قلبه على غير معرفة من حواسه .. أم هو شعاع كان محتجبًا بالضباب .. وقد ظهر الآن .. لينير خلايا نفسه .. هل هو حلم .. سعى فى سكينة الليل .. ليسخر بعواطفه .. أم هى حقيقة كانت منذ الأزل .. وستبقى إلى آخر الدهر .

أغمض (على) أجفانه .. المغلفة بالدموع .. كالمتسول المستعطف وارتعشت روحه فى داخله .. ومن ارتعاشاتها المتواصلة .. انبثقت الزفرات المتقطعة المؤلفة .. بين تذلل الشكوى .. وحرقة الشوق .. وبصوت لايميـزه .. عن التنهد .. غير رنات الألفاظ الضعيفة .. هتف قائلا :

من أنت أيتها القريبة من قلبى .. البعيدة عن ناظرى .. الفاصلة بينى وبينه .. الموثقة حاضرى بأزمة بعيدة .. منسية .. أطيف حورية جاءت من عالم الخلود .. لتبين لى بطل الحياة .. وضعف البشر .. أم روح مليكة الجان .. تصاعدت بين شقوق الأرض .. لتسترق منى عاقلتى .. تجعلنى سخرية بين فتيان عشيرتى ..

من أنت .. وما هذا الفتون المميت .. المحىُ القابض على قلبى .. وما هذه المشاعر المالئة جوانحى .. نورًا ونارًا ..؟ ومن أنا .. وما هذه الذات الجديدة التى أدعوها (أنا) .. وهى غريبة عنى ؟ هل تجرعت ماء الحياة .. مع دقائق الأثير .. فصرت ملاكًا أرى .. وأسمع خفايا الأسرار .. أم هى خمر وساوس .. سكرت بها .. فتعاميت عن حقائق المعقولات .

ولاح الفجر .. وارتجفت السكينة .. لمرور نسيماته .. وسال النور البنفسجى بين دقائق الأثير .. وابتسم الفضاء .. ابتسامة نائم .. لاح له فى الحلم .. طيف حبيبته .. فظهرت العصافير من شقوق جدران الخرائب .. وصارت تنتقل بين تلك الأعمدة .. وتترنم .. وتتناجى .. متشبثة بمأتى النهار ..

فانتصب (على) واضعًا يده على جبهته الملتهبة .. ونظر حوله بطرف جامد .. ومثل آدم .. عندما فتحت عينيه نفحة ـ الله ـ صار ينظر مستغربًا .. كل ما يراه ثم اقترب من نعاجه .. وناداها .. فقامت وانتفضت ومشت وراءه مبهورة ..نحو المروج الخضراء .. سار على أمام قطيعه .. وعيناه الكبيرتان محدقتان بالفضاء الصافى .. عواطفه المنصرفة عن المحسوسات .. تبين له غوامض الوجود .. ومستتراته .. وتريه ما غبر من الأجيال .. وما بقى منها بلمحة واحدة .. وبلمحة واحدة تنسيه كل ذلك وتعيد إليه الشوق والحنين .. فيجد ذاته متحجبًا عن روح روحه .. انحجاب العين عن النور .. فيتنهد ومع كل تنهيدة .. تنسلخ شعلة من فؤاده المتقد ..

وراء صبية بين الأشجار تحمل جرة .. على كتفها .. وتتقدم على مهل نحو الغدير .. وقد بلل الندى قدميها العاريتين اقترب من الصبية .. وعانقها .. وقبل شفتيها .. وقبل عنقها .. وقبل عينيها .. فلم تبد حراكًا بين ذراعيه .. كأن لذة العناق .. قد انتزعت منها إرادتها .. ورقة الملامسة قد أخذت منها قواها .. فاستسلمت استسلام أنفاس الياسمين .. لتموجات الهواء وألقت رأسها .. على صدره المتعب .. وجد راحته ..

وقالت وفى صوتها حلاوة جارحة :

ـ « قد أعادت عشتروت .. روحينا إلى هذه الحياة .. كيلا نحرم ملذات الحب .. ومجد الشبيبة يا حبيبى » .

ومن كتابه « العوصف » :

مات أهلى .. وأنا قيد الحياة .. أندب أهلى .. فى وحدتى وأفرادى ..

مات أحبائى .. وقد أصبحت حياتى بعدهم .. بعد مصابى بهم ..

مات أهلى .. وأحبائى .. وغمرت الدموع .. والدماء هضبات بلادى ..

مات أهلى جائعين .. ومن لم يمت جوعًا .. قضى بحد السيف .. وأنا هنا فى هذه البلاد القصية .. أسير بين قوم .. فرحين مغبوطين .. يتناولون المآكل الشهية والمشارب الطيبة .. وينامون على الأسرة الناعمة .. ويضحكون للأيام .. والأيام تضحك لهم ..

مات أهلى .. أذل ميتة .. وأنا هنا أعيش فى رغد وسلام .. وهذه المأساة المستتبة على مسرح نفسى .

لو كنت جائعًا بين أهلى الجائعين .. مضطهدًا بين قومى المضطهدين .. لكانت الأيام أخف وطأة على صدرى .. والليالى أقل سوادًا أمام عينى .. لأن من يشارك بالأسى والشدة .. يشعر بتلك التعزية العلوية .. التى يولدها الاستشهاد .. بل يفتخر بنفسه .. لأنه يموت بريئًا مع الأبرياء .

ولكنى .. لست مع قومى الجائعين .. المضطهدين .. السائرين فى موكب الموت .. نحو مجد الاستشهاد .. بل أنا ههنا وراء البحار السبعة .. أعيش فى ظل الطمأنينة .. وخمول السلامة .. أنا ههنا بعيد عن النكبة .. والمنكوبين .. ولا استطيع أن أفتخر بشىء .. حتى ولا بدموعى ..

وماذا عسى يقدر المنفى البعيد أن يقل لأهاليه الجائعين ..

ليت شعرى .. ماذا ينفع ندب الشاعر .. ونواحه ..

ولو كنت سنبلة من القمح نابتة فى تربة بلادى .. لكان الطفل الجائع .. يلتقطنى .. ويزيل بحياتى يد الموت عن نفسه ..

لو كنت ثمرة يانعة .. فى بساتين بلادى .. لكانت المرأة الجائعة .. تتناولنى .. وتقطمنى طعامًا .

لو كنت طائرًا فى فضاء بلادى .. لكان الرجل الجائع يصطادنى ويزيل بجسدى ظل القبر .. عن جسده .

ولكن .. واحر قلباه .. لست بسنبلة من القمح فى سهول سوريا .. ولا بثمرة يانعة فى أودية لبنان .. وهذه هى نكبتى الصامتة .. التى تجعلنى حقيرًا أمام نفسى .. وأمام أشباح الليل .

هذه هى المأساة .. الموجعة .. التى تعقد لسانى وتكبل يدى .. ثم توقفنى بلا عزم .. ولا إرادة .. ولا عمل .

★ ★ ★

ومات (جُبران)

مات أهلى على الصليب ..

ماتوا .. وأكفهم ممدودة نحو الشرق والغرب .. وعيونهم محدقة بسواد الفضاء .

ماتوا صامتين .. لأن آذان البشرية قد أغلقت دون صراخهم .

ماتوا .. لأنهم لم يحبوا أعداءهم .. كالجبناء ..

ولم يكرهوا محبيهم كالجاحدين ..

ماتوا .. لأنهم لم يكونوا مجرمين ..

ماتوا .. لأنهم لم يظلموا الظالمين ..

ماتوا .. لأنهم لم يكونوا مسالمين ..

ماتوا جوعًا .. فى الأرض التى تدر لبنًا وعسلًا ..

ماتوا لأن الثعبان الجهنمى .. قد التهم كل ما فى حقولهم من المواشى .. وما فى أمرائهم من الأقوات ..

ماتوا .. لأن الأفاعى .. أبناء الأفاعى .. قد نفثوا السموم فى الفضاء التى كان تلمؤه أنفاس الأرض .. وعطور الورود .. والياسمين .

ومن كتابه .. (آلهة الأرض السابق)

وراء وحدتى :

إن وراء وحدتى .. وحدة أبعد وأقصى ..
وما انفرادى للمعتزل فيهـا .. سوى ساحـة تغص بالمزدحمين ..
وما سكونى للساكنين فيها سوى جلبة وضجيج ..
إننى حدث .. مضطرب .. هائم بعد .. فكيف أبلغ إلى تلك الوحدة القاصية .. ؟
إن ألحان ذلك الوادى تتموج فى أذنى ..
وأظلاله السوداء .. تحجب الطريق عن عينى ..
فكيف أسير إلى تلك الوحدة العلوية ..
إن وراء هذه الأودية والتلال .. غابة حب وافتتان ..
وما سكونى لمن فيها سوى عاصفة هوجاء صماء ..
وما افتتانى لعاشقيها سوى انخداع وغرور ..
إننى حدث مضطرب .. هائم بعد .. فكيف أبلغ تلك الغابة القدسية .
فإن طعم الدماء .. لايزال فى فمى ..
وقوس أبى .. ونشابه ما برحا فى يدى .. فكيف أسير إلى تلك الوحدة العلوية ..

إن لى وراء هذه الذات السجينة .. ذاتًا حرة طليقة ..
وما أحلامى فى عقيدتها .. سوى حرب .. فى ظلام ..
وما رغائبى .. تجاه رغائبها .. سوى فرقعة عظام ..
إننى حفث مهان .. ذليل .. بعد .. فكيف أكون ذاتى الحرة الطليقة ..
قبل أن أثأر لنفسى .. فأذبح جميع ذواتى المستعبدة .
أو قبل أن يصير جميع الناس أحرارًا طلقاء .. إذ كيف تطير أوراقى .. مترنمة فوق الريح .. قبل أن تذوى جذورى فى ظلام الأرض .
بل كيف يحلق نسر روحى .. طائرًا أمام وجه الشمس .. قبل أن تترك فراخى عشها .. الذى بنيته لها .. بعرق وجهى .

★ ★ ★

ومن كتابه .. (النبى) :

المحبـــة :

إذا اشارت المحبة أليكم .. فاتبعوها ..
وإن كانت مسالكها صعبة .. متحدرة ..
وإذا ضمتكم .. بجناحيها .. فأطيعوها ..
وإن جرحكم السيف المستور بين ريشها .. وإذا خاطبتكم المحبة .. فصدقوها ..
وإن عطل صوتها .. أحلامكم .. وبددها .. كما تجعل الريح الشمالية البستان قاعًا صفصفًا .

لأنه كما أن المحبة تكللكم .. فهى أيضًا تصلبكم .. وكما تعمل على نموكم .. هكذا تعلمكم وتستأصل الفاسد منكم .

وكما ترتفع .. إلى أعلى شجرة حياتكم .. فتعانق أغصانها اللطيفة .. المرتعشة إمام وجه الشمس .

المحبة لا تعطى إلا نفسها .. ولا تأخذ إلا من نفسها ..

★ ★ ★

الـــوداع

قليلًا .. ولا ترونني ..
ولكن بعد قليل ترونني ..
لأن امرأة أخرى ستلدني ..
أودع الشباب الذى صرفته معكم ..
فإننا فى الأمس .. قد اجتمعنا كما فى حلم ..
قد أنشدتم لى فى وحدتى .. وبنيت لكم من أشواقكم برجًا فى السماء ..
ولكن عهد النوم قد انقضى .. والحلم قد مضى .. ولسنا الآن .. عند بزوغ الفجر ..
لأن الظهيرة .. ترقص فوق رؤوسنا ..
ويقظتنا الناقصة قد تحولت الى نهار كامل .. فيجدر بنا أن نفترق ..
ولا تنسوا أننى سأعود إليكم مرة أخرى .
قليلًا .. قليلًا .. ولا ترونني ..
قليلًا قليلًا .. وترونني ..
لأن امرأة أخرى .. ستلدني .

(جبران خليل جبران)

ولقد كتب فى وصيته :

« إن تكن لى أمنية بعد الممات .. فهى أن ألحد على أكتاف الوادى الرهيب .. (وادى قاديشا) .. وما أحلى أن أسمع فى صمتى الأبدى .. دقة الناقوس .. ومبخرة الراعى » .

★ ★ ★

ومن آخر رسائله إلى (ميّ) :

« أتعلمين يا (ميّ) .. أنى ما فكرت فى الانصراف .. الذى يسميه الناس موتًا .. إلا .. وجدت فى التفكير لذة غريبة .. وشعرت بشوق هائل .. الى الرحيل » .

★ ★ ★

وقد رحل جبران .. فى ١٢ / أبريل / ١٩٣١

ومات (جبران خليل جبران) .

نعت الرابطة القلمية من نيويورك .. فى برقية مختصرة أرسلت إلى القاهرة .. المرحوم جبران خليل جبران .

(أذن للأدب أن يلبس اليوم ثوب الحداد .. فقد كان جبران من رجالاته المعدودين .. وكان روحًا قويًا ينبعث من نور جديد .. فأحبته الشبيبة المتحمسة .. الراغبة فى قوة العقيدة .. وقوة التغيير .

جبران يرسم لك بالقلم والريشة على السواء .. وهو يعرف كيف ينتصر للمرأة المظلومة فى الشرق .. لأنه أحب هذه المرأة حقًا .. وشعر بشقائها .. وتذوق عبوديتها ..

ولد جبران عام / ١٨٨٣ فهو يقضى الآن فى السابعة والأربعين من عمره .. أحفل ما يكون بالحياة عمره الموفور بالعمل .. وهو من أبناء (بشرى) من أعمال لبنان ..

وجعل جبران يحرر فى (السائح) ومجلة (الفنون) و (مرآة الغرب) وغيرها .. وينشر الكتب .. وماظهر له خلاف (الأجنحة المتكسرة) .. (البدائع والطرائف) ودمعة وابتسامة .. ثم .. (المواكب) .. وقد زينه برسوم من قلمه .

وشعر جبران .. وفلسفة .. وتأمل .. أما تآليفه .. التى وضعها بعد ذلك .. مثل .. (لبنان والمجنون) و (السابق) فقد لاقت أكبر إقبال .. من قراء تلك اللغة .. وكانت معارضه الفنية .. لصوره .. تلقى التقدير والإعجاب .

وقد نما فرعه الأصيل على جبال الأرز .. وتتلمذ فى مدرسة الحكمة فى بيروت .. ثم رحل الى باريس .. فأقام فيها ردحًا من الزمن تعلم فيه الرسم .. ثم جاء الولايات المتحدة .. فسكن مدينة بوسطن مشتغلًا بالكتابة والتصوير .. وعاد إلى باريس فأنهى دروسه الفنية .. وحاز فى أخر السنين الثلاث .. إجازة الفنون الفرنسية متفوقًا .. على أربعمائة من رفاق المصورين من أنحاء العالم .. وقبلت رسومه فى المعرض الدولى السنوى .. ونال عضوية جمعية الفنون الفرنسية وعضوية شرف جمعية المصورين الإنجليزية .

ثم عاد إلى الولايات المتحدة .. واستقر فى نيويورك .. حيث كان مسكنه مزارًا لكافة الشرقيين الذين يفدون الى تلك المدينة العظيمة ..

-(مىّ) :

أما (مىّ زيادة) هذه الكاتبة العربية (مارى زيادة) فيبرز فى حياتها ذلك الجانب الأليم المثير .. من حياة مشرقة خصبة حلوة .. كانت عامرة منذ مطلعها بالبشاشة .. والإشراق .. والحب .. تحفها عوامل كلها تفتح الطريق إلى الشهرة والحب .. والسعادة .. فهى وحيدة والديها .. نشأت فى بيئة الأدب والفكر .. والصحافة .. جميلة رائعة .. ذكية القلب والفؤاد .. كاتبة ذات قلم .. واسعة الثقافة .. توقع بإمضاء (إيزيس كوبيا) إذا كان شعرها بالفرنسية .. أو (مىّ) إذا كان بالعربية .. تطلعت إلى الأدب الرومانسى العاطفى .. وصورت مشاعرها .. فى يوميات .. ولمحات .. فى صور مختلفة .. حاولت أن تكتب بهذا كله .. الأدب النسوى فى طابعه العميق .. ومرماه البعيد .. يستشف مشاعر المرأة .. وأحاسيس الأنثى .. وروح الشرق .. وعطر الخدر ..

(مى زيادة)

ويكشف أسلوب (مى).. عن نفسية فتاة فى سن الشباب .. تتطلع إلى زهرة الحياة الدنيا .. فى خفر وحياء .. وراء خجلها التقليدى المتمثل فى ذلك الأسلوب الرمزى .. الذى يمزج الظلال .. والضياء .. والتصريح .. والتلميح .. والنداء .. فى صيغة من يجيب على النداء .. وفى أسلوبها .. وبيانها .. تلك الوحشة التى تكشف عنها النفوس حين يطول بها انتظار اللقاء بمن تقر به العين .. ولقد كانت (مى) تلتقى بصالونها الأدبى .. بأعلام الفكر .. كلهم يكن لها التقدير والإعجاب . كأنثى مثقفة .. بارزة فى جيل التوارى .. وعصر التردد .. وهى مع هذا الجمال .. ما تزال تعتصم وراء خلفية من آثار الشرقية والدين لعذراء .. وقد ارتفع بها السن .. ومازالت تتطلع إلى الرفيق هذا الرفيق .. المضيب الغائب وراء الأحلام ..

إنه (جبران) .. وهذا هو السر فى هذا الأسلوب الجامح بين النور والظلام .. الأمل والتشاؤم .. الذى عرفت به الكاتبة (مىّ) .

الفهـــرس

الموضـــوع	الصفحة
مقدمة ـ (جبران ... مىَ)	٥
الأدب الجبرانى	١٣
جبران الطفل الحزين	١٧
ماذا يقول التحليل النفسى لأدب جبران	٢٩
جبران الألم .. الحب .. والموت	٤٧
جبران .. فنّ وخلود	٧٥
(مَى وجبران) لمحات .. وظلال	٩٦
مَى .. الألم .. الحب .. والموت	١٢٧
مَى زيادة .. فى سطور	١٤٥
من كتابات مَى زيادة	١٥٧
ومن روايتها المترجمة (ابتسامات ودموع)	١٧٧
(جبران خليل جبران) فى سطور	١٩٥
من كتابات (جبران خليل جبران)	٢٠٣
مات أهلى على الصليب	٢١٣

رقم الايداع : ٢٢٦٤

الترقيم الدولى : ٧ / ٠٦٠ /٢٦٦ / ٩٧٧

المطبعة العربية الحديثة

٨ و ١٠ شارع ٤٧ المنطقة الصناعية بالعباسية

القاهرة - ☎ ٢٨٢٣٧٩٢ - ٢٨٣٥٥٥٤

الملامح الخفية لجبران ومىّ

لوسى يعقوب

.. هذا الكتاب ..

ـ من صوت ناى الرعاة .. وأناشيد الفلاحين .. ومن المروج .. والأودية الهادئة .. الممزوجة بخرير غدرانه .. تولد إحساس ـ جبران ـ بالطبيعة والجمال .. ومن وفاة أخته وأخيه وأمه .. فى عام واحد .. تولدت الآلام .. والأحزان .

و « مى » هذه الشفافة الرائقة .. الأدبية .. التى تتصف بالمثل .. والقيم الروحية كانت ظلالًا لحياة هائمة .. فى دنيا الخيال .. تعشق المستحيل .. وتعشق البعيد .. فاجتمع كل منهما ـ جبران ومى ـ على البعد .. وتعانقا مع المستحيل ..

وفى هذا الكتاب « تقدم لنا ـ لوسى يعقوب ـ بعض الملامح الخفية ـ لجبران ومى ـ من واقع دراسات متشعبة أخذت من منبعها الأصلى .. لتعريف القارئ بخفايا جبران ؟

الناشر

الناشر
المؤسسة العربية الحديثة
للطبع والنشر والتوزيع